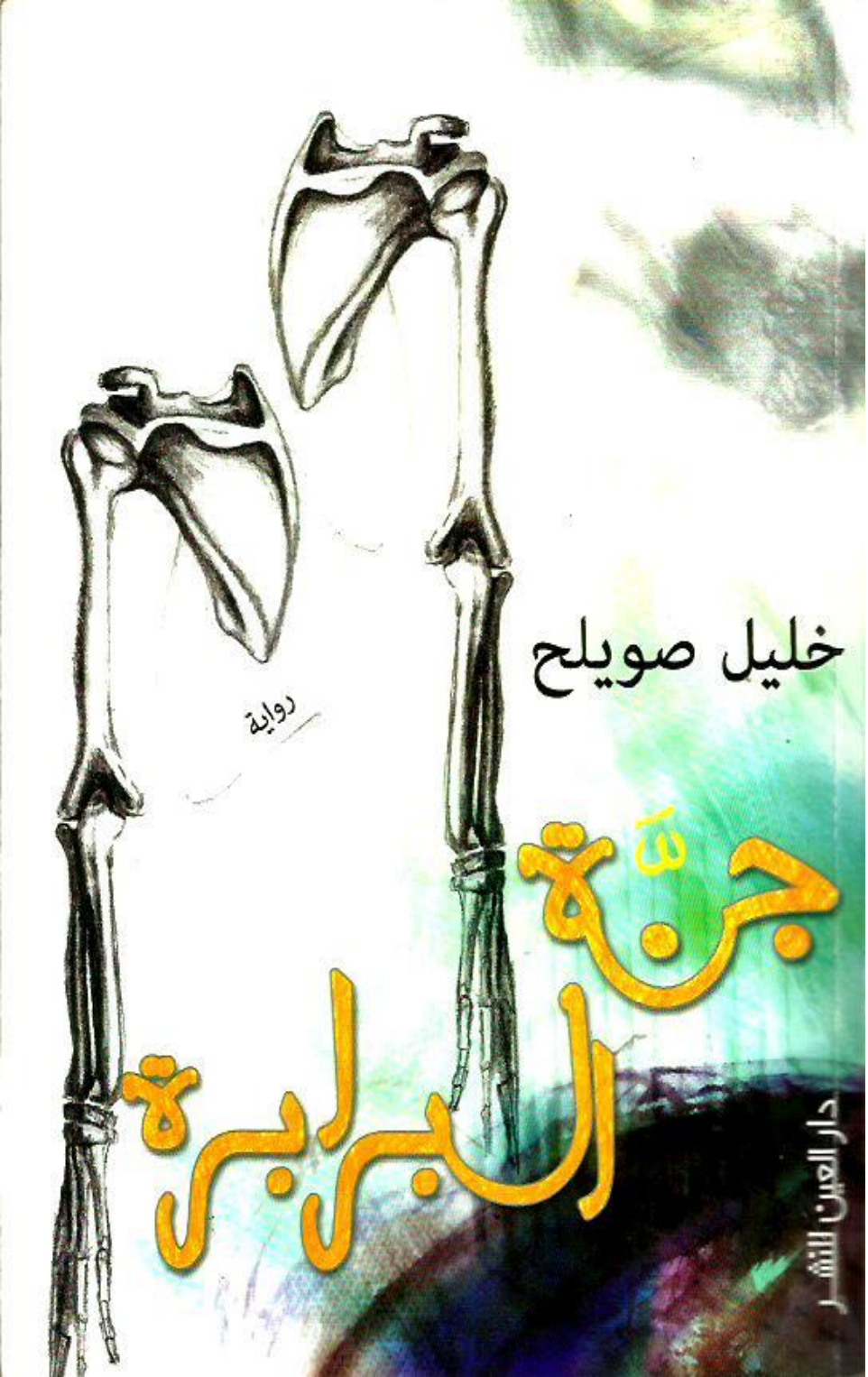
خليل صويلح
رواية
جنّة البرابرة
دار العين للنشر

جنَّة البرابرة

جنّة البرابرة

(رواية)

خليل صويلح

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أحمد شوقي

خالد فهمي

فتح الله الشيخ

فيصل يونس

مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٨٣٥٥

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 278 - 9

جنَّة البرابرة

رواية

خليل صويلح

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

صويلح، خليل

جنة البرابرة: رواية/ خليل صويلح.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ١٤ ٢

ص؛ سم.

تدمك: ٢٧٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٨٣٥٥ / ٢٠١٤

"دمشق واحدة من تلك المدن التي كتبتها يد الله على الأرض"

لامارتين

ما هي سيرتي الذاتية؟
إنها (الحزن) هذا هو التعبير الأدقّ لها، أو شكلها الأبدي إذا شئت. الآن، وبعد اعتقالي للمرة الثالثة، بوسعي إيجاز سيرتي الذاتية بطريقة ما، بالجملة التالي: "استدرتُ فرأيت نفسي، وقد أصبحتُ رجلاً عجوزاً.

سيرغي باراجانوف

"لم يرحلوا، وإنما البلاد هي التي رحلت"

أمين معلوف

تقديم

أينما اتجهت، في شوارع دمشق وساحاتها وجسورها، يرافقني طيف خوسيه ساراماغو، في مشاهد من روايته "العمى" بعدسة فرناندو ميرااليس. أردد عبارة منه "ما أصعب أن يكون المرء مبصراً في مجتمع أعمى!" يجيبني بهدوء العارف "لا أعتقد أننا أصبنا بالعمى، بل نحن عميان من البداية. حتى لو كنا نرى.. لم نكن حقاً نرى"، ثمّ أستعيد قولاً مأثوراً من الإنجيل "أعمى يقود أعمى، كلاهما يقع في حفرة"

العتمة أيضاً تستدعي ما يشبهها في الكتابة.

أن تتلمّس كأعمى تضاريس الكيبورد، على ضوء شمعة، وموسيقى صاخبة لتعطيل أصوات القذائف، والألم "بجرعات كبيرة" عتمة وموسيقى وصوت مؤذن، وبقايا ثلج الأمس عند حافة النافذة، وذاكرة تستدرج على مهل روايات الآخرين عن مصائد الموت المخادعة.

ستبقى الرواية ناقصة، بغياب الرواة الذين غادروا المكان باكراً، إلى قبور مجهولة. البلاغة وحدها لن تعوّض التفاصيل الكاملة لفزع الضحايا

بالدقة التي جرت فيها الوقائع. هناك لحظة خاطفة وعصية على الوصف: الراوي الذي نجا بالمصادفة، سيفتقد حدة التركيز، فما عاشه تحت القصف المباغت، في المعتقل، أو لحظة الفرار من الموت المحتّم، أو لحظة الاختطاف، أو الانتهاك، لن يتكرر مرّة أخرى بالتفاصيل نفسها، أو ما يسمى "حلاوة الروح"

بصحبة شهاب الدين بن أحمد البديري الحلّاق

لستُ مؤرخاً، و لم أرغب يوماً، بأن أكون في موقع المؤرخ.

فترة الجحيم التي خبرتها عن كثب، أرغمتني على المصالحة مابين ابن خلدون وابن عساكر، في تدوين يومياتي، فقد كنتُ عالقاً في أتون النار، أحصي أنواع العنف، وأسباب الخراب، وعمق الهاوية. أسجّل أرقام عدّاد الموتى: مائة يوم، مائتا يوم، خمسمائة يوم..

لم تكن عاصفة رعدية عابرة، كما أنها لم تكن ربيعاً من أزهار الكرز، مثلما كنتُ أتأمل. تدحرجتْ كرة الثلج فوق أرض زلقة، فكان عليّ أن أدوّن وقائع ألف يوم ويوم من الجحيم، وربما أكثر، فالأمر مرهون بقوة اشتعال الوقود، وجهة الريح.

هل قلت تدوين يومياتي؟

ليست يوميات بالمعنى المتداول، إنما هي "سرديات الشهود" في المقام الأول، وحوادث، وآلام، وانتهاكات، عشتها يوماً بيوم، لجهة اختلاط الخرائط، وتعدّد الهويات، واشتباك الرواة. على الضفة الأخرى، كنتُ

منشغلاً في إعادة اكتشاف هويّة ممزّقة. هويّة لم تخضع يوماً لاختبارٍ قاس، كالذي تواجهه اليوم، تحت وطأة أسئلة خشنة، لطالما كانت مؤجلة وغائمة ومراوغة، أو على نحو أدقّ، أسئلة غير مسموح بها، فالشعارات الكبرى، كانت العباءة التي تحجب علل الجسد وأورامه وأشواقه، وتوقه إلى الطيران عالياً، العباءة التي تمنع الجلد من تقشير الحراشف الاصطناعية التي لُصقت به قسراً، كي لا يجرّب السباحة، بعيداً من مستنقع العفن. كان على أسماك المستنقع، أن تمجّد السباحة في نهر بردى العظيم حتى بعد جفافه، بأناشيد حماسية صاخبة، وشعارات رنّانة في مديح الأشنيات والطحالب والخواء، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن شيئاً لم يتغيّر، أو يحتضر ببطء مثل مريض مزمن في غرفة الإنعاش، بكيس من السيروم معلّق بأنبوب ضيّق ينتهي بوريدٍ مفتوح على الهلاك. أتأمل من خلف الزجاج حركة الأنبوب، نقطة، نقطة. نقطة تنحدر من الأعلى، ثم تنزلق إلى الأسفل، قبل أن تتسرّب إلى الجسد الغارق في غيبوبته.

توابل "الهويّات القاتلة" تجتاز طريق الحرير، في متاهة الجغرافيا والتاريخ. المتاهة الرملية في صحراء الأسلاف، منذ أن دكّت خيول الفتوحات الإسلامية أبواب دمشق بالسيف، والصلوات الخمس، ودفع الجزية، قبل ألف وثلاثمّائة وسبعة وسبعين عاماً. هكذا غرقتُ على مهلٍ، في استعادة مرويات مؤرخين، وورّاقين، ومصنفين قدامى، خبروا جحيماً مماثلاً، عاشته دمشق، في قرونٍ خلت، بقصد حياكة الخيوط المتشابكة التي وسمت هذه الفترة العاصفة، على غرار ما فعله هؤلاء، لقناعتي الراسخة بأننا نعيش الأهوال نفسها، بنسخة ثانية، وربما بنسخة ثالثة أكثر فتكاً، وأكثر بربرية.

في أروقة الجامعة، درستُ تاريخ الأمم، والأنثروبولوجيا، ومنهج البحث التاريخي، واللغات القديمة. لكنني، بعد أربع سنوات، من غبار المعارك، وصليل السيوف، والخناجر المسمومة، وأصوات المنجنيقات، ورائحة الدم، والدسائس، والهزائم، والانتصارات، لم يبق في ذاكرتي من مآثر الأجداد، على صفحات تلك الكتب، غير عبارات محدّدة مثل" فقأ عينيه"، و"جدع أنفه"، و"ثكلتك أمك"، و"إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها"

أحاول أولاً، اقتفاء أثر طارق بن زياد بعد عودته إلى دمشق، قادماً من الأندلس بصحبة موسى بن نصير، من دون أن أجدَ ما يدلّ عليه، فالمرويات التاريخية الضئيلة، تفيد بأن هذا المحارب المغامر مات معدماً، عند عتبة الجامع الأموي، من دون وصيّة، عدا خطبته المشهورة، المشكوك بصحتها في الأصل، ولا أحد يعلم إلى اليوم، أين يقع ضريحه؟ أما رفيق رحلته موسى بن نصير فقد عوقب بشدّة، بسبب رفضه أمر سليمان بن عبد الملك بأن يتأخر في طبريا، في طريق عودته من الأندلس، محمّلاً بالغنائم النفيسة، ريثمّا يموت شقيقه الوليد بن عبد الملك، ويخلفه في المُلك، فيُحسب فتح الأندلس، على عهده، وليس لمصلحة عهد شقيقه المريض. مات الوليد بعد أربعين يوماً، من وصول موسى بن نصير إلى دمشق، وما إن بدأ عهد سليمان بن عبد الملك حتى أمر بإحضار موسى، وأمر بإقامته في الشمس إلى أن كاد يهلك، وأغرمه أموالاً عظيمة، ودسّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه عبد العزيز بن موسى الذي استخلفه الأب على أرض الفتوحات الجديدة.

شريط طويل ومكرّر، من الغزوات والفتوحات والثورات والمذابح واهتزاز العروش، يعبر أمامي بالأبيض والأسود، عدا كدمات حمر داكنة، هي أختام فاتحين وملوك وخلفاء وولاة وقادة جيوش وجنرالات وانقلابيين. أختام ممهورة بالدم، أو الإذلال، أو "اسلم تسلم"، من دون أن أقعَ على طوق نجاة. كنتُ أكتب إذاً، "كي أنجو"، مدفوعاً برغبة محمومة في تدوين حياة مقطّعة الأوصال، عالقاً في بئرٍ عميقة، من دون سلالم، وتائهاً في سرابٍ لا نهائي، مثل طريدة في مرمى أنياب الوحوش، وغارقاً في كوابيس بلا ضفاف.

التقيتُ أولاً، بمؤرخ جليل هو ابن عساكر، وقد انتهى للتو، من تدوين "تاريخ مدينة دمشق" فأخبرني في باب "ما جاء من الأخبار والآثار أن الشام يبقى عامراً"، بقوله "تخرب الأرض ويعمر الشام، حتى يكون من العمران كالرمّانة، ولا يبقى فيها خربة في سهل ولا جبل إلا عَمُرت. وليغرسن فيها من الشجر ما لم يُغرس في زمان نوح، وتُبنى فيها القصور اللائحة في السماء، فإذا رأيت ذلك فقد نزل بك الأمر"، لكنه فاجأني، بعد صمتٍ وشرود، وهو يتأمل رقعةً أخرى من مؤلفه الضخم، بعبارة ثانية، بدّدتْ طمأنينتي في الحال، بقوله "لتهدمن مدينة دمشق حجراً حجراً، فأوّلُ الأرض خراباً الشام"، ثمّ عدّل من جلسته، وقال "إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط، كان الشام في رخاء وعافية، وإذا كان الشام في بلاء وقحط، كانت فلسطين في رخاء وعافية، وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط، كانت بيت المقدس في رخاء وعافية" ودّعته، وقد ازدادت حيرتي، مما أنا فيه. كانت تضللني شجرة رمّان مثقلة بالثمّار تارةً، وطائرة تلقي حمولتها من البراميل

المتفجّرة طوراً، استدرجُ مشاهد الخراب، واستغاثات المحاصرين تحت القصف، ومشاهد النزوح الجماعي، وجثث القتلى المتروكة في العراء، وفتاوى الجهاديين في تبرير الهلاك، إلى أن تعثّرتُ بأبي حيّان التوحيدي، فوجدتُ تطابقاً بين ما كتبه في مقدمة كتابه "المقابسات"، وما أرغب تدوينه اليوم. قلتُ لنفسي "إن تفصلنا عشرة قرون كاملة، فهذا ليس مهماً، فنحن، على أية حال، لم نتقدّم خطوةً واحدة إلى الأمام، أم إننا تراجعنا إلى الوراء آلاف الفراسخ لنصطدم بالجاهلية الثانية؟"

كان هناك فرق تقني بسيط في الأدوات، فقد نسخ أبو حيّان التوحيدي مقابساته بريشة مصنوعة من جناح طائر، فيما كنتُ أكتب يومياتي على كمبيوتري المحمول مباشرة.

وقعتُ على ضالتي من دون عناء، في السطور الأولى من المقدّمة، كما لو إنها كُتبتْ لأجل هذه اللحظة تماماً، فهو يقول "إني نقلت هذا الكتاب والدنيا في عينيَّ مسودّة، وأبواب الخير دوني منسدّة، لثقل المؤونة، ولقلة المعونة، وفقد المؤنس، وعثار القدم بعد القدم، وانتشار الحال بعد الحال. هذا مع ضعف الركن، واشتعال الشيب، وخمود النار، وسوء الجزع، وأفول شمس الحياة، وسقوط نجم العمر، وقلة حصول الزاد، وقرب يوم الرحيل ما إن ودّعت التوحيدي الذي كان منهمكاً في نسخ "البصائر والذخائر"، وربما "الإمتاع والمؤانسة"، لم أعد أذكر تماماً، على الأرجح، بسبب انفجار مباغت، حتى وجدتني وجهاً لوجه مع حلّاق دمشقي عاش في القرن الثامن عشر، يدعى شهاب الدين أحمد بن البديري الحلّاق. كان

هذا الحلّاق مؤرخاً شعبيّاً، لا تخلو الوقائع التي كان يسجّلها في مخطوطته "حوادث دمشق اليومية" من طرافة، كأن يقول مبتهجاً بقدوم أحد الأولياء إلى دكّانه "ومما من الله عليّ أن حلقتَ رأسه واغتنمت دعاءه"

المصادفة وحدها، هي من أنقذت هذه المخطوطة النفيسة من الضياع، فقد أراد الشيخ محمد سعيد القاسمي أن يبتاع شيئاً من عطّار، فوضع العطّار ما باعه في ورقة مكتوبة، ولما عاد الشيخ إلى بيته، فتح الورقة وقرأ ما فيها، فأدرك أنها جزء من مخطوطة تاريخية، فعاد على الفور إلى دكّان العطار، وحصل على بقية الكرّاسة، حتى اجتمعت له مخطوطة شهاب الدين أحمد البديري الحلّاق "حوادث دمشق اليوميّة"

خلال تسجيلي هذه اليوميات، كنتُ مذعوراً من ضياعها، أو فقدانها فجأة، على غرار ما حصل للبديري الحلّاق، نتيجة ضغطة زرّ خاطئة على الكيبورد، أو أن يتوقّف الكمبيوتر بسبب عطلٍ مفاجئ، أو ألّا أتمكّن من إتمامها، بسبب انفجار قذيفة ما. فنحن كائناتُ المصادفة وحسب، كأن تكون على بعد أمتارٍ من سيارة مفخخة، أو قذيفة هاون، أو صاروخ ضال. وكان أشدُّ ما يفزعني وجود قنّاص، على سطح بناية مجاورة. أنظرُ من نافذة غرفتي التي تقع في الطبقة الأخيرة من بناية قديمة، في زقاق فرعي، من حي الصالحية، إلى الأسطح المجاورة، وأتخيّل قنّاصاً لا مرئياً يكمنُ خلف الأطباق اللاقطة، أو خزّانات المياه، أو النافذة المقابلة لنافذتي مباشرةً، فأنا في مرماه تماماً. وهاأنذا أتخيّل طريقة موتي، وكيف سأقع عن الكرسي ببطء، ليرتطم جسمي برخام أرضيّة الغرفة، فيما ستتلوّث شاشة الكمبيوتر المفتوحة أمامي بدمي، من دون أن أكمل الجملة الأخيرة.

كنتُ أوزع ما أكتبه على أكثر من دهليز سرّي في الكمبيوتر. أرسلُ ما أنجزه إلى بريدي الالكتروني، ثمّ أتأكد بأنني استلمت الرسالة، أو أخزّنه في فلاش ميموري، أو أطبعه ورقياً. القنّاص الوهمي يعطّل عملي، كلما نظرتُ عرضاً، من نافذتي إلى السطح المقابل. أستعيد صورته من الأفلام، ومن حكايات الآخرين "إياك أن تكون ثالث العابرين في شارع يقطعه القنّاص. فالقنّاص أو صائد الرؤوس يشاهد العابر الأول، ويصوّب على الثاني، ويصيب الثالث" كان سائق التاكسي الذي تعاقدتُ معه أخيراً، لمرافقتي إلى مكان عملي، ظهيرة يومي السبت والثلاثاء، من كل أسبوع، قد روى لي ما فعله قنّاص منذ أيام، في محيط ساحة العباسيين، حين استهدَفَ بائع شاي على دراجة هوائية، يتخذ ركناً في ساحة مجاورة لموقف حافلات الضواحي. لم يكن بائع الشاي طريدته الأولى، إنما شخص آخر، كان يقف بالقرب منه. رصاصة في ساقه اليسرى، أوقعته أرضاً. يهرع بائع الشاي لإنقاذه، فتأتيه رصاصة في قدمه اليمنى، ثمّ رصاصة ثانية، وثالثة، في أنحاء متفرّقة من جسمه، يزحف بائع الشاي نحو حافلة صغيرة متوقّفة، يختبئ بين العجلات، على أمل النجاة، فيوجّه القنّاص رصاصاته نحو عجلتي الحافلة المكشوفتين أمام منظار بندقيته الأوتوماتيكية، فتهبطان فوق الجسم الجريح. أفكر بمصير هذا البائع، وكيفية تحطّم أضلاعه، وأنينه المكتوم، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فوفقاً لرواية سائق التاكسي، لا تزال جثته ترقد أسفل الحافلة، منذ أشهر، من دون أن يتمكّن أحد من سحب الجثة المتعفنة.

كتب شهاب الدين أحمد البديري الحلاق يومياته، خلال القرن الثامن

عشر، في الفترة الممتدة بين عامي (1741 و1762) على وجه التحديد، وقد كانت دمشق يومها، تعيش فترة قلاقل، وحركات تمرّد، ومجاعات، في عهدي سليمان باشا العظم، وأسعد باشا العظم. وفي أيام الوالي الأخير، وصلت أحوال البلاد إلى ذروتها في ارتفاع الضرائب، وسوء المعيشة، والنهب "بما لا يحصى بقلم"، فقام أهالي دمشق بتمرّد واحتجاجات وإضرابات بسبب غلاء أسعار الخبز وانتشار المجاعة، وللمطالبة بقطع "دابر الفساد"، وهو ما جعل السلطان العُثمّاني يصدر فرماناً ينفي بموجبه والي دمشق إلى جزيرة "كريت"، ومن ثمّ قتله في أنقرة إثر خلاف بينهما. هذه الحوادث اليومية التي كان يسجلها البديري الحلاق ببلاغته العاميّة، صارت بعد قرنين ونصف القرن، سجلّاً معرفياً للمدينة، وسيرة للعوام والرعاع واللصوص، و"بنات الخطا"، ومواكب الحج. ولم يخطر في بال هذا الحلّاق الشعبي، أن مخطوطه هذا سيكون وثيقةً نادرة عن دمشق القرن الثامن عشر، والحياة اليومية لهذه المدينة العتيقة، ببؤسها من جهة، ومقاومة أهلها للمظالم من جهة أخرى. من موقعه، في دكان الحلاقة، في حي الميدان، كان البديري يدوّن يومياته مما يرى ويسمع، بعين ترصد التفاصيل الصغيرة، من دون أن يتدخّل في مجريات الأحداث، إلا في ما ندر. وإن كان يميل إلى المبالغة في وصف ما يجري، تبعاً للموروث الشعبي في سرد الحكايات، لجهة تهويل الوقائع، وكأنه امتداد لتجربة المقريزي في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" الذي دوّن فيه تفاصيل المجاعات، وضروب المحن والمآسي، وطبقات الحياة اليومية في مصر المملوكية. كان البديري الحلّاق يرصد فيضان نهر بردى بالطريقة نفسها التي يسجّل فيها وقائع محمل الحج، أو نزهة للوالي في غوطة دمشق، أو "إطلاق المحابيس

إثر عفو عام من الوالي للتخفيف من وطأة الاحتجاجات الشعبية.

بعد نحو قرنين ونصف القرن، سنقرأ ما كتبه هذا الحلّاق الدمشقي، وكأنه حدث للتو بالتفاصيل نفسها. يقول في وصف ما حدث في حي الميدان، إثر هجوم عسكر الوالي لوأد الاحتجاجات "فهجمت العساكر على الميدان، ولم يبقَ فيها مكان إلاّ ودخلوه، وأذن لهم المتسلّم بالنهب والسلب من السويقة إلى آخر الميدان، فنهبوا وقتلوا، فلم تبقَ دار ولا دكّان إلاّ نهبوها وهدّموها، فسلبوا الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الحريم، وفضحوا نساءهم، ودام ذلك إلى وقت العصر وأنا سرتُ مع من سار، فوجدناها قاعاً صفصفاً، والقتلى بها مطروحة، والأبواب مكسّرة، والدكاكين مخرَّبة، وجدرانها متهدّمة. والحاصل حالها حال تقشعر منه الأبدان، ووقع الإرجاف والخوف والهمّ والغمّ في دمشق الشام" سأقع على عبارة موحية، في متن هذا المخطوط، تختزل ما أرغب أن أدوّنه بخصوص أحوال الشام "ومع ذلك فالطاعون مخيّم في الشام وضواحيها، مع الغلاء ووقوف الأسعار"، ثمّ سأتوقّف عند حادثة مشابهة، لما تعيشه دمشق اليوم، بالتفاصيل نفسها أيضاً، وقعت في العام 1745 "في هذه الأوقات، زاد غلو الأسعار، وقلّت الأمطار وعظمت أمور السفَهَة والأشرار، حتى صار رطل الجبن بنصف قرش والبيضة بمصرية وأوقية السيرج بنصف الثلث، ومد الشعير بنصف قرش، ومد الحمّص بنصف قرش، ومد العدس بنصف قرش، وغرارة القمح بخمسة وأربعين قرشاً، بعدما كانت بخمسة وعشرين قرشاً، وأوقية الطحينة بأربعة مصاري، والدبس كل ثلاثة أرطال بقرش، ورطل العسل بقرش وربع، وكل شيء نهض ثمّنه فوق العادة، حتى صار مدّ الملح بنصف قرش .

ويسجّل وقائع ما حصل هذا العام في حي ساروجة وما أصابه من دمار ورعب وفرار "ثمّ أمر حضرة الباشا أن يوجهوا المدافع على سوق ساروجة، فوجهوا ما عليهم وأمر بضربها بالكلل فضربت، فما كان بأقل من حصة يسيرة حتى احترقت الدور وتهدّمت البيوت، واحترق بيت القلطقجي وعدم عن آخره، ونهبت العساكر كل ما فيه، ثمّ سرى النهب في بقية الدور، فنهبوا وقتلوا ومثّلوا وبدّعوا، وذهب الصالح والطالح، حتى صارت محلة سوق ساروجة قاعاً صفصفاً. وأما ابن القلطقجي فإنه فرّ هارباً بعد ما بذل من الشجاعة هو وجماعته الغاية القصوى"

وتكرّر الأمر ذاته في الميدان، إثر عصيان آخر "ثمّ أمر حضرة الباشا أن تدار المدافع على جهة الميدان فوجهوها، وكان رأس المفسدين بها مصطفى آغا بن خضري جربجي، حتى سمى نفسه سلطان الشام، وعنده زمرة من الأشقياء يتقوّى بهم، وبها أيضاً أولاد الدرزي أحمد آغا وخليل آغا ولهم بها دولة وصولة فحين بلغ هؤلاء المفسدين بأن حضرة أسعد باشا وجّه عليهم المدافع بالعساكر أوقع الله الرعب في قلوبهم، وركنوا للهرب والفرار، وطلبوا البراري والقفار. وبانهزامهم وهربهم تقطّعت قلوب بقية من كان من الشجعان من أهل الميدان، فمنهم من هرب ولحق بساداتهم، ومنهم من قبر في المغاير والقبور، ومنهم من غطس في النهور. ولما وصلت للميدان المدافع لم يجدوا فيها من يدافع فأول ما اشتغلت العساكر بهدم دار ابن خضري، بعد ما نهبوا جميع ما فيها من المتاع وغيره، وكذلك فعلوا بدار ابن حمزة وبغيرها من الدور، حتى نهبوا نحواً من خمس مئة دار، وبعد ذلك اشتغلوا بهدم الدور التي نهبوها".

أعبرُ حاجزاً أمنيّاً، يفصل ساحة يوسف العظمة عن حي ساروجة، وسط دمشق، أتوغّل في الأزقة الضيّقة، بين دكاكين الميديا، وباعة الأسطوانات المدمجة، ومقاهي الرصيف المرتجلة، يرافقني طيف البديري الحلّاق، انعطف باتجاه زقاق طيني ضيّق، أتوقّف عند يافطة صغيرة مكتوب عليها بالأحمر مقهى "لاروش"

لاروش، أو الصخرة، اسم غرائبي، لمكان ضيّق ومعتم وغامض، على الأرجح، كان مستودعاً للخردة، أو بيتاً مهجوراً، يزدحم حول طاولاته المعدودة، طلبة جامعات، وشعراء قيد التمرين، وعشاق، ومدوّنون، أتوا من أجواء التظاهرات والاحتجاجات قبل أن ينسحبوا من المشهد، خشية الاعتقال، أو القتل برصاصة طائشة، وسط إحدى التظاهرات. التظاهرات التي انطلقت من الجنوب، على هيئة هبّة شعبية دفاعاً عن كرامة مهدورة على يد جنرال أمني، كان قد اعتقل مجموعة من التلاميذ على خلفية اتهامهم بكتابة شعارات مضادة للسلطة، وثمّ أهانته لأهالي التلاميذ بأن ألقى كوفية وعقال أحدهم في سلة القمامة، تعبيراً عن سخطه واحتقاره لمطالب الوفد بالإفراج عن هؤلاء التلاميذ، وهو ما يتنافى مع الأعراف العشائرية في الجنوب، فاشتعلت الشرارة، و لم تنطفئ إلى اليوم.

إضاءة خافتة، وغيوم تبغ محترق، ونقاشات صاخبة حول الأوضاع المأساوية التي تعيشها البلاد، والثورة المخطوفة، والحواجز، وحملات المداهمة، قبل أن ينعطف السجال إلى المغامرات الغرامية السريّة، والسجائر الملغومة، بانتظار أفق آخر. يفضّل وائل قيس الذي يعمل موزعاً

جوّالاً للكتب في دارٍ للنشر، مصطلح "شعراء الظل على مصطلح "شعراء مقاهي ساروجة" المتداول تهكماً في هذا الوسط. يبرّر هذه التسمية بحماسة: "جئنا من الظل والعشوائيات والبطالة وغياب اليقين"، قبل أن يستعرض مكابداته اليومية في عبور الحواجز من أعلى أزقة ركن الدين المتاخمة لجبل قاسيون إلى حي ساروجة لقضاء وقت مستقطع مع ما تبقّى من أصدقائه. نصوصه تشبه تسكّعه إلى حد كبير (غداً أو بعد غد، سأبيع نظارتي الشمسية لأشتري "سوزوكي"، أدخن الحمراء الطويلة، وأشرب الشاي، منتظراً الراكب الذي يعجبني لأقله إلى منزله، سأقول لك: أحبك، وتقولين: أحبك، وعندما اتصل بك سيجيبني هاتفك: عذراً إن الرقم المطلوب غير موجود في الخدمة بعد. غداً أو بعد غد، لن يكون هناك شيء يمكن أن نسميه "الغد")، بهذه العبثية، وهذا الشغب، يلتقط وائل قيس مفرداته، من دون أن ينكر تأثره بنصوص الآخرين، ولكن بإضافة توابل جديدة إلى معجمه "حين أتصلُ بصديق وأجد هاتفه خارج التغطية، فهذا يعني، على الأرجح، بأنه معتقل، وتالياً لابد أن تكون مثل هذه العبارة جزءاً من نصّي ويختزل حسام ملحم الذي انتهى نادلاً في هذا المقهى، بعد خمس سنوات من الاعتقال، بسبب انتسابه إلى تجمّع شبابي مدني محظور، أحوال شباب مقاهي ساروجة بأنهم أبناء الحياة الافتراضية في المقام الأول، فيما تتلاشى التجربة الحياتية إلى حدودها القصوى، ويضيف، وهو يضع فنجان القهوة على الطاولة المزدحمة" ليس لدى أغلبية رواد هذه الأمكنة ما يفعلونه أكثر من تفريغ فائض حكي، حول الطاولات المتناثرة" من ركنه المعتم، يستل أحمد الحاج جهازه الخليوي، يفتّش عما

كتبه على الشاشة، ويقرأ: "تلك القبلة في ممر المشاة، بين ساروجة وباب شرقي. سأقبّلك في الريح، فأنا غريب، أفكّر بأن انتحر بسرعة، من أن انتحر ببطء، وأن أدفن حياً في أحشاء هذه المقاهي والحانات" يعلّق وائل قيس ضاحكاً، وهو يمج سيجارته الحمراء الطويلة "موقع الفيس بوك أقنعَ معظم الشباب المتعطّلين بأنهم شعراء، ولكن عليك أن تتجاهل الركاكة والأخطاء النحوية والإملائية وحتى علامات الترقيم، وإلا ما عليك إلاّ حذفهم جميعاً من القائمة"

أخرجُ من قلب العتمة، أتنفسُ هواء الشارع بعمق، الهواء الملطّخ برائحة الحرب والضجر والخوف. أعبرُ من تحت قوس حجري قديم، نحو أزقة ملتوية وضيّقة، وعمائر طينية في رمقها الأخير، وحمّام شعبي جرى ترميمه حديثاً، أجفلُ من صوت قذيفة انطلقت للتو، من جهة جبل قاسيون إلى مكانٍ ما، في ضواحي العاصمة. تحضرني صورة تيمور لنك بعد احتلاله دمشق، مطلع القرن الخامس عشر، فقد اتخذ هذا الحيّ قاعدة لنصب منجنيقاته التي كانت تدك قلعة دمشق، وإحراقه المدينة بأكملها، قبل أن ينسحب منها، وسوف يقوم المعماري الفرنسي ميشيل إيكوشار، أثناء مرحلة الانتداب الفرنسي، بالإجهاز على جمالية هذا الحيّ، أو ما كان يسمى "اسطنبول الصغرى"، على نحوٍ آخر، حين وضع مخططه المعماري الذي يقضي بتصنيف الأحياء التي تقعُ خارج سور المدينة القديمة، مناطق حديثة، وهو ما أدى إلى هدم معظم البيوت الدمشقية العريقة بهدف إنشاء عمارة حديثة مكانها. انعطفُ نحو بوابة أخرى تقودني إلى سوق الخجا المجاور، أضخم سوق لبيع حقائب السفر. هناك سأكتشفُ حركة صاخبة

وزحاماً وجلَبة، وكأن سكان المدينة قرروا مغادرتها جميعاً، فأينما التفتَّ ستجد شخصاً يحمل حقيبة سفر، أو يجرّ حقيبة بعجلات وراءه. أقولُ لنفسي: هل سأُرغم قريباً على مغادرة دمشق، وشراء حقيبة سفر جديدة، كما يفعل هؤلاء، وهل تكفي حقيبة واحدة لنسيان حطام الأمس؟

مسوّدات ضائعة

2012 /4/ 25

أخترعُ طريقاً لولبية، لعبور شارع الصالحية، الشارع المتاخم لشارع بيتي، محاذراً الاصطدام ببضائع بائعي الأرصفة التي انبثقت فجأة كالفطر، بالتوازي مع انطلاق الاحتجاجات، فغياب شرطة البلدية، أو انشغالها بمهام أخرى، أفسح المجال لهؤلاء الباعة باحتلال الأرصفة، ليس في هذا الشارع الحيوي فقط، بل في معظم الأرصفة التي تحتشد بالعابرين، وخصوصاً رصيف الجامعة، في حيّ البرامكة. اندس مخبرو الأمن بين الباعة الجوّالين، و لم يعد معروفاً بالنسبة لشرطة البلدية، مرجعية هذا البائع من ذاك ("المندس" مصطلح جديد في القاموس السوري يُستعمل على الوجهين)، فتخلّت عن مهمتها في مصادرة البضائع. تكتشف "المندس الأمني من طريقة وقفته، وعرضه لبضاعته (ابتعت فلاش ميموري بحجم عالٍ من الميغا بايت بمئة ليرة فقط، بما يعادل ربع ثمّنها الحقيقي). المشهد عند رصيف الجامعة، يختلف عمّا هو عليه في الصالحية. ففي الأيام الاعتيادية كان هذا الرصيف مخصصاً لملصقات النجوم، وبطاقات

الموبايل، والساعات المزيّفة، والكتب المستعملة، وباعة اليانصيب، أما اليوم فقد أُزيحت صور شاكيرا، وهيفاء، وميسي، لمصلحة صور قائد البلاد بالزي العسكري، والشعارات الوطنية، والأعلام، فيما يغص شارع الصالحية بالأحذية، والحقائب الصينية، وحمّالات الصدر، بأثمان بخسة، بالمقارنة مع أسعار السلع في واجهات المتاجر شارع الصالحية هادئ عموماً، ومقفر ليلاً، لكن ما أن تكمل صعودك إلى "ساحة عرنوس"، نقطة بداية الشارع، حتى تقع على مشهد مختلف وصاخب، ففي هذه الساحة انتشرت عشرات المقاهي المرتجلة التي استثمّرت مقاعد الساحة لجلوس هواة تدخين النارجيلة، والعائلات المشرّدة من بيوتها، والعشّاق الضالين. الساحة مراقبة بصرامة، ذلك أن بعض المحتجين اخترقوها في تظاهرات صغيرة، سرعان ما كانت تنتهي، نظراً لبسالة أصحاب المقاهي، وهم رجال أمن بالطبع، في تفريق الحشود، واعتقال عينات من المحتجين إلى حافلات مجهّزة، تقف قريباً من سور الساحة.

(لم أجد في الفترة الفاصلة، ما بين تاريخ بداية كتابة هذه اليوميات وما يليها، سبباً مقنعاً للتوقف عن تدوين وقائع جديدة، عدا الضجر، وقلة الحيلة، والإحباط، بسبب ضياع ما كتبته أثناء ترميم حاسوبي، إثر عطل مفاجئ، إذ فقدت جزءاً كبيراً من المحفوظات القديمة، والصور الفوتوغرافية، والوثائق، مما كنتُ اخزنه في أحد الملفات، أو على سطح المكتب، عدا مسودات صغيرة وملاحظات تحتاج إلى تحرير، وهذا وحده ما يبرر انقطاعي نحو سنة عن تدوين يومياتي، أم لعله هدير الحوّامات، هو

ما أعادني إلى التدوين مجدّداً؟ الحوّامات في تحليقها الأول فوق سطح بيتي مباشرةً).

حاولت مراراً، أن أتجاهل صوت القذائف البعيدة، إلى أن اقترب هدير الحوّامات. الحوّامات في طيرانها الأول، تعبر من أمام نافذة غرفتي، ثم تتجه شرقاً. نشرة أخبار الظهيرة تتبنى أعداداً إضافية من القتلى، ومعركة في ساحة السبع بحرات، وسط دمشق. سأعبر الساحة بعد نحو ساعة، لا أجد آثار معركة، لكن عسكرياً عند الناصية، سيفتّش حقيبتي. أكمل طريقي إلى مقهاي ككل يوم. المقهى يخلو من رواده المعتادين. أغرق في عناوين الجريدة اليومية، وقد تحوّلت صفحاتها إلى إعلانات مبوّبة للموتى. لا أحد يأتي. هاتفي لا يرنّ. موعد غامض مع فتاة من الضواحي يتلاشى تحت وطأة ساعة الرمل. الطرقات مقفلة إلى وسط المدينة. في طريقي إلى المقهى. أتخيّل بأن يأتي يوم لا أجد من أجلس إليه في المقهى، وأن أكتب حكاية فانتازية عن رجل وحيد في مقهى، ينتظر أصدقاء لن يأتوا أبداً، لكنه، كعادته، سيذهب ظهيرة كل يوم إلى المقهى بالاعتياد نفسه، يرتشف قهوته، ويقرأ صحيفته بضجر، ثمّ يغادر المكان، ليعود إليه في اليوم التالي، إلى الطاولة نفسها في الرواق الطويل، لصق النافذة التي تطل على فتحة سماوية، مستعيداً صخب روّاد غير مرئيين، تركوا قاموس شتائمهم وغضبهم وأشواقهم، ثمّ مضوا إلى غير رجعة. الرجل الوحيد كي يسلّي وحدته، يفتح ألبوماً وهميّاً، ويستعيد ضجيج وصخب وسجالات جلسات قديمة، وكأن أصحابه، لم يغادروا الطاولة في الرواق الطويل للمقهى، مرّةً واحدة. في زيارات لاحقة، سيطوّر اللعبة على نحوٍ

آخر، بأن يجمع كل من عبر طاولته يوماً في جلسة واحدة، إلى الدرجة التي لا يتذكّر فيها وجوههم جميعاً، وحتى بعض أسمائهم. في الأيام التالية سوف يختصر مشواره اليومي إلى مربع أصغر مما اعتاده قبلاً.

اختزلَ الرجل الوحيد أولاً، شارع البرلمان، الشارع الذي ينتهي بساحة وحانة وحديقة مجاورة (حانة الفردوس، وساحة النجمة، وحديقة السبكي)، إلى زقاق فرعي يفضي إلى الشارع الرئيسي المتاخم لمنزله، ثمّ سيكتفي في نهاية المطاف بدورة التفافية واحدة، هي المسافة الفاصلة بين منزله والمقهى. الرجل الوحيد، سيكتشف أن المقهى، لم يكن موجوداً يوماً، لكنه سيذهب كل يوم إلى الرصيف نفسه، وينعطف يميناً، ثمّ يدخل باباً خشبيّاً بزجاج مكسور، ورواق طويل، وكراسٍ وطاولات بلا قوائم. سيرتّب جلسته على نحوٍ ما، بانتظار النادل. ينظر إلى ساعته بوجل، خشية أن يكون قد تأخر عن موعده، غير عابئ هذه المرّة بصوت القذائف، وهدير الحوّامات، ونشرة أخبار الظهيرة.

هل كنت أهذي؟ ربما، ذلك إنني في الواقع، ما زلت أجلسُ في المقهى نفسه، أقصد مقهى الروضة، في شارع العابد، وأمامي فنجان قهوة فارغ، ومغلّف أزرق يحتوي أفكاراً لأفلام تسجيلية، كان مخرج سينمائي صديق قد طلبها مني كي نناقشها معاً، وقد تأخر عن موعده، بسبب صعوبة الوصول من الضواحي إلى مركز المدينة، ولا شك بأنه عالق عند أحد الحواجز، لكنه أكّد لي بأنه سوف يأتي حتماً، بناء على اتصال هاتفي منه، لحظة خروجه من منزله، في ضاحية المعضمية. ولكن ماذا لو أن

صديقي المخرج قد تعرَّض لحادث؟ كأن تطيحه رصاصة طائشة، لحظة إغلاقه هاتفه المحمول، وبأنني أنتظر سراباً. بعد مرور ساعة أخرى، كنت خلالها، أقلّب محتويات الملف، واستبعد صلاحية تنفيذ معظم الأفكار التي وضعتها كمشاريع لأفلام، نظراً لصعوبة تحقيقها، في مثل هذه الظروف، أو إنها تحتاج إلى صقلٍ أكبر، فما كان يدعو للدهشة في الأمس، لم يعد بالألق نفسه اليوم، إذ كان الخراب والفقدان والموت يتخذ أشكالاً أكثر فزعاً، وأكثر عنفاً، وأكثر سريالية. حين عاودت الاتصال به مرّة أخرى، كان هاتف صديقي قد أصبح خارج التغطية، هل حدث له مكروه؟ هل خطف أم اُعتقل؟ استبعدُ الفكرة، ثمّ أقول لنفسي: في كل الأحوال، سأحتفظ بهذا الملف، بانتظار خبر جديد عن اختفاء صديقي.

(في طريقه إلى موعده، توقّف الميكروباص بالقرب من مبنى الهجرة والجوازات، فقرّر صديقي السينمائي فجأة، أن يجدّد بيانات جواز سفره، نظراً لانتهاء صلاحية الجواز. لم يخطر في باله، بأنه سيخرج من هذا المبنى، بعد نصف ساعة، مخفوراً، فقد كان مطلوباً، لأحد الفروع الأمنية، بسبب مشاركته في تصوير إحدى التظاهرات، كما وُجدتْ "مواد محظورة" في كمبيوتره المحمول، فاختفى مدة ثلاثة وثلاثين يوماً، في أحد المعتقلات، من دون محاكمة، اضطر بعدها للخروج سرّاً من البلاد).

أركل الحصى في الشارع الذي خلا من السيارات، أخاطبُ الإسفلت وحجارة الرصيف وأشجار النخيل: هل كان على الحرب أن تقع الآن، أم قبل سنواتٍ طويلة؟ أم إنها فاتورة مؤجلة أدت إلى تراكم الضرائب؟ مشتل

الرعب أطاح مواعيد كثيرة لتحطيم أسوار الخوف. أن تخاف ظلّك، وأن تهملَ مرغماً مفردات غزيرة في المعجم، بذريعة التحايل على الرقيب، أو التحايل على المخبر بنظارته السوداء من بقايا أفلام الأبيض والأسود، وعلى نادل المقهى المتلصص بذريعة تلميع رخام الطاولة ومنفضة السجائر وحمل الفناجين الفارغة، وعلى زميل العمل برقمه الحزبي المتقدّم، وعلى عسكري الهجرة والجوازات في المطار. تقف أمام الكوة مضطرباً من تهمة مجهولة، فيما هو يدقق بياناتك الشخصية على شاشة الحاسوب. خشيتك من تشابه الأسماء تزيد اضطرابك. اختلاف أسماء الأمهات وحده من يحميك من شبهة الخيانة. الخيانة بقولٍ مأثور، أو عبارة مارقة، قلتها أو كتبتها في لحظة ارتجال طائشة.

كان على الحرب أن تقع قبل عقدين على الأقل من اليوم، أقولُ لنفسي، أقلّه كي لا يتلوّث معجمك الآن برائحة البارود، والقتلى، والمخطوفين، والأنفاق، والمعتقلات، وشبهات الهوية، وحواجز الطرق إلى الضواحي، وريبة أصدقاء الأمس، فالوليمة السورية باذخة إلى حدّ يفوق الوصف. المسلخ العمومي مفتوح على مصراعيه لكل أنواع الذبائح، ونظراً لشهية الحشود، وضيق الوقت، لم يكن ضرورياً بأن يكون الذبح على الطريقة الإسلامية بحذافيرها. بإمكانك أن تجزّ عنق الذبيحة ببلطة أو سيف صدئ، أو رصاصة قنّاص، أو قذيفة، أو بفتوى تكفيرية، فهذه الأخيرة لا تقل فتكاً عن أنواع الأسلحة الأخرى. الموت بضاعة سورية رابحة، في أكبر مزاد للقتل، حتى أن مطابع أوراق النعي، لم تعد بحاجة إلى موافقات أمنيّة مسبّقة، كما جرت العادة.

غرافيتي جماعي تختلط فيه، أسماء الموتى، مع الشعارات والرسوم ودماء الضحايا، على جدارٍ واحد. جدار ستخترقه قذيفة ضالة، كجزء من جماليات المشهد.

أنصتُ بإمعان لاكتشاف الفرق بين صوت الحوّامات، وأصوات الغربان، في الصباح المبكر. ما يفوتني بالطبع صوت ارتطام القذيفة بالهدف، أقصد صعوبة مزج كل هذه الأصوات المتنافرة في هارموني واحد. لاشك أن الحفلة تحتاج إلى مايسترو حاذق لكتابة نوتة صحيحة.

منذ أشهر، لم أغادر مربّع الصالحية، وهذه مغامرتي الأولى في الذهاب إلى موعد مع صديق قديم يقطن في مساكن برزة. الطريق إلى هناك، صبيحة يوم الجمعة شبه مهجورة. سائق التاكسي الشجاع وافق على اصطحابي إلى منطقة ملتهبة بأجر مضاعف، متهماً سائقي سيارات الأجرة الآخرين بالجشع. أصوات رصاص لا تنقطع في مكان ما قريب، فيما كان صديقاي الشاعر والسينمائي يتبادلان الاتهامات حول مواقفهما مما يجري في البلاد، غير عابئين بالخبر العاجل على الشاشة، الخبر الذي يتعلّق بانشقاق جنرال سوري وهروبه إلى باريس، ذلك أن الخريطة التي اقترحاها في وصف ما يحدث، وسيحدث غداً، كانت تعمل في مكانٍ آخر، تحت الضربات الشرسة للخطوط الزرقاء التي رسمها السينمائي، مستنجداً بأشعار من محمود درويش في وصف دمشق "في دمشق تسير السماء على الطرقات القديمة حافية.. حافية/ فما حاجة الشعراء إلى الوحي والوزن والقافية"

كنت أفكّر بالإيقاع. هناك "آلة موسيقية" لا تعمل كما يجب، ذلك أن

رشقات الرصاص المتقطّعة لا تتناغم مع انفجار قذيفة على نحوٍ مباغت. وسط هذا العبث، لا أحد يعلم، ماذا كان يفعل الموتى قبلَ الانفجار بقليل؟

في ليل القذائف، أكتبُ على صفحتي في الفيس بوك: (شعار "الحرية" هو سلحفاة الوقت السوري. أرانب القنص تفوز في السباق. لم تعد حكمة الحكاية القديمة، تُقنع أطفال ما قبل النوم).

وأيضاً: (البئر المهجورة، ستلفظ أولاً، الأفاعي والعقارب والعناكب، قبل أن تصفو المياه الصالحة للشرب في هذه الصحراء الشاسعة. علينا أولاً، أن نتخلّص من ثقل "العبودية المختارة"، وأوهام "تحسين شروط العبودية"، بما يدخل في باب "ولعُ الذليل بمذلّه" أخشى حرب القبائل، فخارج رطانة الأفكار التي تبشرنا بالديمقراطية والمدنية والتعددية، من دون حيثيات مؤكدة، علينا أن نقلق من المستقبل، فشعار اليوم، يلُغيه شعار الغد).

كتبتُ هذا التعليق الطويل، بتأثير من أتين لابوسييه وكتابه "مقالة في العبودية المختارة" الذي كتبه في القرن السادس عشر، عن تفكيك آلية الطغيان. بعد دقائق كنت أواجه حملة شرسة من الردود الغاضبة والشتائم والاتهامات من دمى منفوخة بالقش، ومن انتهازيين سابقين حجزوا أماكنهم في قطار الغد الموعود، ومن أسماء مجهولة أو وهمية. أحسستُ بوهن مفاجئ وخيبة أمل إضافية، وقبل أن أغلقَ شبكة الإنترنت، قبل الفجر بقليل، استوقفني ابن خلدون منبّهاً إياي من "هياج العامة والدهماء"، أو "الوحش غير المقدور عليه" كان منظر ابن خلدون، وهو يتدلّى بحبلٍ من

سور قلعة دمشق لمقابلة قائد المغول تيمورلنك، يتكرّر أمامي مثل كابوس ثقيل، لكن صاحب "العبر وديوان المبتدأ والخبر لم يعبأ باتهامي له بالخيانة والمراوغة والخنوع، لقناعته، كما شرح لي، بأنه كان يسعى إلى إنقاذ المدينة من الدمار، وكرّر قوله أمامي بأن "الظلم مؤذن بخراب العمران"، وبأن "الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء"

قذيفة طائشة

2012/5/16

"الرجل الذي يرتشف قهوته على ما تبقى من شرفة منزله، بصحبة مجلّد ضخم من أعمال دوستويفسكي، ليس متأكداً تماماً، بأن حالة الهدوء النسبي ستستمر إلى آخر اليوم، أو أن قذيفة طائشة لن تطاله، أو أن رصاصة قنّاص لن تخترق زجاج نافذة غرفة المعيشة.

فوارغ الطلقات فوق طاولة المطبخ، وقائع من حرب لم يخضها.

الرجل ينهي قهوته المرّة بهدوء قتيل مؤجل، ثم يمضي إلى شؤونه الأخرى"

بغياب صديقي السينمائي في المعتقل، تعطّلت حواسي تماماً، فقد كنت أنوي مناقشته بصلاحية المشاهد السابقة لبناء فيلم قصير، وهل السيناريو يحتاج إلى ترميم إضافي، في ما يتعلّق بمصير هذا الرجل، وهل كان عليه أن يقرأ كافكا، أم دوستويفسكي، أم ابن عساكر؟ وقبل كل ذلك: هل سينجو

الرجل الذي يرتشف قهوته في الشرفة من الموت، أم ينتهي برصاصة قنّاص؟ ولكن ماذا لو قرّر القنّاص أن يغادر موقعه في البناية المقابلة، نحو بيت الرجل، ويطرق الباب، ثم يدخل من دون استئذان، ويتجه نحو غرفة المعيشة مباشرة، ويطلب من الرجل بمرح أن يشاركه القهوة، ثم يعترف له بأنه لم يفكّر جديّاً بقنصه، لأن هذا الرجل كان تسليته الوحيدة في هذه البناية شبه المهجورة، وسوف يعترف له أيضاً، بأنه كان يؤجل قتله، ريثما ينتهي من قراءة الكتاب الذي بين يديه، وقبل أن يغادر الغرفة، يلقي نظرة نحو الكتاب، ثم يتصفحه بلا اكتراث، متوقفاً عند صفحة مطويّة، في الثلث الأخير من الكتاب، ثم يخاطبه بجديّة تامة: "حين تنهي قراءة هذا الكتاب، آمل أن تغادر هذا المكان على الفور، وإلا لن تنجو.. لن تنجو أبداً"

غبار الكمنجات

2012 /8/9

في ظهيرة التاسع من آب، من كلّ عام، يتجوّل طيف محمود درويش في شوارع دمشق، كما لو أنه ولد في باب شرقي، أو القيمرية، أو الشيخ محيي الدين، يستعيد صورة الأمكنة الأولى، ويهتفُ "في دمَشْقَ، ينامُ الغريبُ على ظلّه واقفاً، مثل مئْذَنَة في سرير الأبد، لا يَحنُّ إلى بَلد، أو أَحَدْ" لا أعلم ماذا يفعل محمود درويش الآن، على وجه الدقة؟ أربع سنوات من الغياب كفيلة بإنجاز أربع قصائد طويلة على الأقل، وربما أنجز ديواناً

كاملاً، من يعلم؟ على الأرجح فأنه غارق في تصحيح المسودات، وترميم الإيقاع، وسط صخب الموتى، والإنصات إلى تأثير "النهوند" على البروفة الأخيرة للنص الأخير. ولكن ماذا يفعل الشاعر المحزون في غرفة الموسيقى وغبار الكمنجات بغياب العازفين؟ أسمع رنين النرد فوق الرخام. هل وجد لاعباً بمهارته في تحطيم البيادق؟ ماذا لو أنه لجأ إلى كتابة "الهايكو في فسحته الجديدة؟ أظنُّ بأن الضربات السريعة الخاطفة في كتابة نباتات الجليل تناسبه أكثر في اختبار أنواع الزهور البريّة. سيحاور إدوارد سعيد في هذا الشأن. على الأرجح أيضاً، سيهز الأخير رأسه موافقاً بحماسة، وهو ينقر بأصابعه على الطاولة مقارناً بين ضربات السونيتة، وضربات الهايكو. في عزلته الطويلة سوف يعيد كتابة "يوميات الحزن العادي"، وسيكتشف مرّة أخرى بأن "الطريق إلى البيت أجمل من البيت"، لكنه، في المقابل، سيعلّم الموتى، أهمية "أثر الفراشة" في استعمال المجاز كان يوم (9 أغسطس) طويلاً ومضجراً ومربكاً. كيف سيغيّر صاحب "لماذا تركت الحصان وحيداً" عاداته اليومية، في غرفة ضيّقة بلا ستائر، برفوف مكتبة فارغة، تخلو من ديوان المتنبي، وأناشيد الميثيولوجيا الكنعانية، وموسيقى موزارت؟ العناوين التي كانت ترافقه إلى المنافي. لاشك بأنه سيودّع التراجيديا إلى الأبد "علينا أن نتفهّم أسباب التراجيديا لا تبريرها" يقول مكرّراً فكرته القديمة.

وسيكتشف عن كثب "إيثاكا الأنقاض من دون إبحار هنا لا يحتاج إلى كتابة جدارية أخرى، فقد أنجزها قبل غيابه بقليل. سيذهب إلى شؤون

عاطفية و"غراميات مرحة"، و"ورد أكثر ونساء لم يتسنَ له الكتابة عنهنَ، في غمرة انشغاله بنتائج "عملية القلب المفتوح"

هل انتبه الأطباء حينذاك إلى أسراره التي لم يقلها لأحد، وهي تسيل من الأوردة المفتوحة؟ لو لم يكن البريد إلى جنّة محمود درويش معطّلاً، لكنّا إزاء مجاز مختلف، و"طباق" آخر، سيعيننا على مقاومة العطب والألم والندم. مقعده شاغر في الحديقة، فيما فلسطين تبتعد أكثر بغيابه. أخشى أن يبتلع البلدوزر الإسرائيلي قبره أيضاً، في بلاد لم تعد لأهلها. كنتُ أرغب معرفة رأيه في زلزال الخرائط العربية، لكن انفجار قذيفة بالقرب من قوس باب شرقي، خلال وجودي هناك، عطّل الفكرة تماما، وكان عليّ اختبار معنى أن تنجو بالمصادفة، من موت محقّق، أو أن تجد نفسك مستباحاً ووحيداً وأعزل في حانة معتمة، تستنجد بصورة نزار قباني المعلّقة على الحائط، وأن تعترف له، من دون مواربة: لا أحد ينصت الآن، إلى نصوصك في تمجيد دمشق وياسمينها. الياسمين ملطّخ بالأحمر. لا عشاق يتسكّعون على رصيف شارعك. لا أحد يكتب "ترصيع بالذهب على سيف دمشقي"، لا أحد ينشد "أنا الدّمشقي.. لو شرّحتم جسدي/ لسال منهُ عناقيدُ وتفاحُ" المعذرة أيها الشاعر، سوف تسيل من جسد الدمشقي رائحة بارود، وشظايا قنابل، وذكريات عن موتى ومفقودين ومحزونين.

لاعبو النرد

2012/8/12

الرصاص قبل قليل في ساحة يوسف العظمة. رائحة البارود تهبّ إلى الشوارع المجاورة فتختلط برائحة القهوة. لا رائحة للياسمين في دمشق، جرياً على عادة برامج الصباح في الإذاعة. أصوات سيارات الإسعاف تخترق شارع العابد بعنف. المراوح القديمة في سقف مقهى الروضة لا تكفي لتبريد الهواء المخنوق برائحة الدّم. لاعبو النرد، لم يوقفوا اللعب تماماً. التفاتة خاطفة نحو النافذة المطلّة على الشارع، ثمّ كأن شيئاً لم يحدث، فالأمر يتعلّق بقنبلة صوتية، ورصاص عشوائي في مطاردة اعتيادية لا أكثر.

محارب الفيس بوك بكامل عتاده، نقل على الفور خبر انفجار عبوة في ساحة المرجة، إلى وسط شارع العابد، فقد كان الانفجار قويّاً، وكأنه أمام مقهى الروضة. محارب الفيس بوك لم يصحح الخبر، فقد انشغل بسجال آخر يتعلّق هذه المرّة بتبرير عدد الطرائد التي غنمها خلال الانتفاضة، نافياً بأن بلاغته المستعارة هي السبب في توريط الحرائر، بين غزوةٍ وأخرى.

السجال الصاخب انتهى أخيراً، إلى أن ما يحدث في صفوف الإنتلجينيسيا الجديدة، هو ثورة جنسية في المقام الأول، من دون أن تحمل بصمة ثورة الطلاب في باريس 1968، نظراً لاختلاف الأسباب والجغرافيا ومرتبة الكبت، وقبل ذلك كله، غياب "سارتر السوري، لكن محارب الفيس بوك نفسه، أصرّ على الاحتفاظ بجناحي الطاووس حول جذعه

الناحل، وهو يراقب طريدة غنمها في الأمس على شبكة الإنترنت، لحظة دخولها المقهى بخطوات مرتبكة وعينين حائرتين، قبل أن يلوّح المحارب لها بيده، مشيراً إلى مكان جلوسه. كنتُ أنظر إليه، ثم إلى الطريدة الغرّة بالتناوب، لفحص درجة الاشتهاء المتبادلة بينهما، وإذا بالمحارب الشرس بكامل عتاده يخلع ريش الطاووس، ليتكشّف عن ثعلب بذيل طويل يجرّه خلفه نحو طاولة أخرى، في ركنٍ منزوٍ من المقهى.

الافتراس. لا أجد مفردة مناسبة سواها، لوصف ما يحدث، هنا وهناك. عدا الوحشية في افتراس "الآخر؟"، نحن إزاء افتراس لغوي في الدرجة الأولى. أن تلتهم الضحية بشهية بلاغية كاملة، مستعيناً بمعجم الجاهلية، وكتب التراث الصفراء، والأقوال المأثورة، في إطاحة الخصم، وتكسير الرّكب. افتراس شفوي، وآخر تحريري، وثالث ميداني. في نهاية المطاف، لن نجد أكثر من وليمة عظام!

الحرب اللغوية في صلب الحرب العمومية. البلاغة تندحر إلى الخلف بعناد ثيران الحراثة، تحت وطأة الوحشية. تعال يا رولان بارت إلى ساحة الحرب، على عجل، لتفكيك شيفرات ما حدث ويحدث في خريطة الزئبق السوري. على الأرجح، فنحن نغرق في لجة "الكتابة في درجة الصفر وبتعبير أكثر دقة، ما قبل الكتابة. البهيمية التي تفترش سجادة اللغة، تنزلق تدريجياً إلى هباء المعنى. سيبويه نفسه، سيقف حائراً، في إعراب جملة سورية واحدة، نظراً لتعدّد إحالات أسباب القتل والهلاك والإبادة.

الرحّالة كاف

2012 /8 /29

خرج المتنبي من قاعة العرش في قلعة حلب، على عجل. لم يتح له صوت انفجار قذيفة مباغتة، أطاحت بوابة القلعة، بأن يودّع سيف الدولة الحمداني كما ينبغي. كان يتساءل عن صحة ما قاله يوماً، في وصف المدينة: "كلما رحبت بنا الروض قلنا/ حلب قصدنا وأنت السبيلُ" في بيته المجاور للقلعة كان "الرحّالة ك" يلملم مسودات مخطوطته السريّة، خشية أن يفقد ورقة منها، في غمرة الفوضى، كما جمع على عجل نسخاً من صحيفتيه المحتجبتين "الشهباء"، و"الاعتدال" بأمر من الوالي العثماني، وما أن وصل الديار المصرية بعد عناء حتى كشف عن كنزه المخبوء. كتب على الورقة الأولى بخط الثلث "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" ثمّ خطّ في أعلى الورقة اسمه الكامل، من دون خشية: عبد الرحمن الكواكبي. وافتتح كتابه بهذه العبارة "هي كلمة حق وصرخة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غداً بالأوتاد" بعد نحو سنتين على إقامته في المحروسة، مات الكواكبي مسموماً، ودُفن في مقبرة باب الوزير. هناك من عبث بالقبر، ولا أحد يعرف اليوم، أين يرقد جثمان الرحّالة كاف؟

(قبل نحو عقدين تقريباً، فتشتُ طويلاً في مكتبات دمشق عن كتاب "طبائع الاستبداد" كان أصحاب المكتبات يهزون رؤوسهم بالنفي. هزّة رأس مرفقة بنظرة ريبة، فقد كان هذا الكتاب الرجيم ممنوعاً، ويصعب

الحصول على نسخة منه، فالاستبداد بالنسبة للرقيب الرسمي صناعة محليّة في المقام الأول، من دون أن يقول ذلك علناً. اليوم أقف حائراً، أمام عدد الطبعات التي بحوزتي، من هذا الكتاب، بالإضافة إلى النسخ الالكترونية المتاحة على مواقع الانترنت. حيرة لا تقل شأناً، عمّا أرغب بتدوينه من أقوال الكواكبي. مرور قرن على تأليفه هذا الكتاب، يؤكد لي، مرّة أخرى، بأننا لم نغادر المستنقع خطوةً واحدة. ألجأ إلى أول نسخة حصلت عليها من هذا الكتاب، وهي طبعة لبنانية، وجدتها لدى بائع كتب على رصيف شارع الصالحية، أتتبع الخطوط التي وضعتها تحت بعض العبارات المهمة مثل "من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل"، و"الاستبداد أصل لكل فساد"، ثمّ "الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم باللين والتدرّج"، ثم "كلما زاد المستبد عسفاً وجوراً، زاد خوفه من رعيته"، على أن أكثر عبارة استوقفتني، هي "لو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم").

في معرّة النعمان، على بعد أميال من حلب، لم يجد المقاتلون مكاناً أفضل من المتحف للاحتماء به من القذائف. وعلى مقربة من تماثيل الآلهة الرومانية القديمة، وفسيفساء آفاميا، كان أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي، المعروف باسم أبي العلاء المعري منهمكاً في كتابة نسخة جديدة من "رسالة الغفران" توقّف طويلاً أمام عبارة كتبها في القرن الحادي عشر، ووجد بأنها صالحة إلى اليوم "اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دَيِّنُ لا عقل له" كان "رهين المحبسين" في حيرة من أمره: "هل كان عدد ضحايا المجزرة الأخيرة في معرّة النعمان 49 قتيلاً، أم

50 قتيلاً، ذلك أن نشرات الأخبار لم تتفق على الحصيلة النهائية للضحايا، وحين اشتدّت أصوات الانفجارات صرخ غاضباً "خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد" لكن أحداً لم ينصت إليه، كما أنه لم يتوقّع أن يجد تمثاله، بعد أشهر من هذه الحادثة برأسٍ مقطوع.

آثام أيلول

2012 /9 /1

لا يشبه أيلول ما سبقه.

رضوض الربيع الثالث، وحطام الصيف الملتهب، تركت للخريف آثام الفصول كلها. موتى، ومقابر جماعية، وجثث بلا أسماء. الطائرات تقصف أهدافاً بعيدة. هناك من كان ينهي قهوته، لحظة سقوط القذيفة، فاختلطت رائحة الهال بدمه، فيما حلّقت ذراعه اليمنى خارج النافذة مثل طائرٍ أعمى، ثمّ ارتطمت بعد دقائق – وهذا افتراض محض– بجسد امرأة فقدت للتو ذراعها اليسرى. على أي حال، للموتى تدابير إلهية في استعمال الأعضاء المبتورة عند الحاجة، أقله لزوم الصور التذكارية.

هناك أيضاً، الضجر. أن تبدأ يوماً، لا تعلم كيف سينتهي. أسطوانة الموت تعيد الموسيقى ذاتها من غرامافون متخيّل، كان حريّاً به، أن يبثّ أغاني أسمهان مثلاً. في الصباح، كما في الظهيرة، وفي الليل المتأخر، الأسطوانة ذاتها تدور، وتدور، وتدور، كما لو أنها عالقة إلى الأبد.

ولكن الصعوبة تكمن في وصف المعادن، الحديد على نحوٍ خاص. الحديد مخلوطاً بالفولاذ والنحاس، وغبار الطلقات الفارغة. الحديد الذي كان يذهب طوعاً، إلى قوائم الأسرّة الريفيّة، وصناعة النوافذ، والأبواب، ومضخات المياه، وسكك حديد القطارات. للحديد اليوم وظيفة واحدة هي صناعة آلة القتل. الحديد يغوص عميقاً في اللحم في تجارب كيميائية معقّدة، يصعب تقدير نتائجها بدقة، لحظة ارتطام القذيفة بالجسد المذعور.

الأجساد المذعورة قبل أن تلقى حتفها بقليل، سجّلت مشاهد لن يرويها أحد، كما ينبغي أن تروى، ذلك أن ردهات البناية، ارتطمت بصلابة المعدن، فانصهر اللحم ببقايا الحجارة على هيئة مقبرة جماعية لأرواح بشر مجهولين.

الجثث المصفوفة على عجل، في خندق جماعي، عند تخوم حقل ذرة، كما لو أنها مشتل لأشجار حور سامقة، بفارق هندسي بسيط يتعلّق بخصوصية المنظر الأفقي، لكنهما – في نهاية المطاف– كلاهما سيصعد عمودياً إلى السماء.

بيقين تام، أقول لنفسي، وأنا أرى شريطاً مصوّراً على اليوتيوب لرجل يحمل طفلته التي قُتلت للتو تحت الأنقاض:هذه البلاد ذاهبة إلى الجحيم بلا شك. لم يعد بمقدورنا الإنصات إلى حكايات الموتى بالدهشة التي كانت تنتاب حواسّنا قبل أشهر فقط، لفرط تشابه الحوادث وتكرارها. لاتهمّ طريقة القتل بغياب الرواة، ولكن لنفترض أن أحدهم نجا بالمصادفة وحدها من مجزرة حدثت للتوّ. ليس بوسعه أن يصف ما حدث بدقة،

فلكل ضحية طريقتها في السرد، وحصتها من منسوب الأدرينالين.

الحاجز

2012/10/2

الحاجز بأكياس الرمل وفوهات البنادق، ونظرة العسكري المرتابة بك، وهو يقارن بين هيئتك في صورة البطاقة الشخصية، وملامحك الغامضة من وراء زجاج النافذة المفتوحة للسيارة. الحاجز الذي لم يلفت انتباهنا في أفلام الحرب إلا كمشهد عابر يقود إلى ما بعده. هناك ملحق آخر يستدعيه الحاجز أيضاً، يتعلق بالاختطاف إلى جهة مجهولة كآخر سجل للأحياء قبل أن يُسجّلوا في قوائم المفقودين.

عند الحاجز، عليك أن تتعلّم فضيلة الصبر. الانتظارات الطويلة المضجرة تستدعي مشاهد قديمة لا تخصّ شريط الرعب اليومي. الرتل الطويل للسيارات تحت جسر المحلّق الجنوبي، أو عند تقاطع نهر عيشة – الميدان، أو باب شرقي، سوف يستدعي أيضاً، فكرة وجود قنبلة موقوتة، في سيارة ما، ستفكّر بذلك مرغماً، ولن تجد وسيلةً للنجاة وسط هذا الزحام، بإمكانك فقط، أن تتخيّل مشهد فوضى طيران الأجساد إلى السماء، بأكثر الأشكال بربرية.

الحواجز خريطة هندسية، تشبه لعبة المتاهة في مجلات التسلية، بفارق واضح: ليس محتّماً على اللاعب أن يصل سالماً إلى خط النهاية. التعليمات الحازمة لدى رجال الحاجز، لا تستثني أحداً من التفتيش. رتل طويل من

السيارات يتحرّك ببطء إلى الأمام، عند مدخل حي برزة، بما فيه الشاحنة التي تحمل جثثاً لقتلى مجهولين. جثث مكشوفة على الملأ تتكدس بفوضى، كما لو أنها ذبائح أتت للتو من المسلخ.

الطريق إلى حي الميدان، متاهة من الحواجز. تتوقف التاكسي نحو نصف ساعة وسط الزحام، ثمّ تتقدّم أمتاراً، ثمّ تغوص في نفق، ثمّ تخرج إلى زحام آخر. يدقّق العسكري بيانات البطاقة الشخصية بإدخالها إلى جهاز كمبيوتر، فيما أتأمل من النافذة شعارات النصر المكتوبة على عجل بخط مائل، فوق جدار المبنى المقابل. لستُ مطلوباً إذاً، أقول لنفسي، وأنا أتناول بطاقتي من العسكري بيد مضطربة. أستعيد مرّة أخرى واقعة كتبها البديري الحلّاق في يومياته، يصف ما حدث في الميدان، سنة 1757، بقوله "ثمّ صاح الباشا في جنده، وطلب جهة الميدان، فلم يقف بين يديه أحد، وهجم هو وعسكره على الإنكشارية، فلم يثبت منهم أحد. فلم يزل يضرب هو وعسكره بالسيف إلى أن وصلوا إلى خارج باب الله، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، والذي ما أرادوا قتله أخذوه ووضعوه في الجنزير. ونهبت العساكر الميدان، ولم يتركوا كبيراً، أو صغيراً إلا قتيلاً أو أسيراً. ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلاً إلا استعملوا النهب والسبي وهتك الأعراض، من سلب النساء الحليّ وسلب البنات الأبكار، وغير ذلك مما يعمي الأبصار، وتمنّوا الموت الدوّار، ولم يروا هذه الفظائع المهولة الكبار، وانتكبت أهل الشام نكبةً في ذلك العام، ما عهدت من أيام التيمور، ولله عاقبة الأمور .

هل عبر الانكشاريون، وعسكر الوالي أسعد باشا العظم، الأرض التي أقف عليها الآن؟ أنصت بانتباه إلى ضجيج محاربين، واستغاثات نساء، وصليل سيوف، وكأنني عالق هناك، منذ مائتي عام.

كي تصل إلى المكان الذي تبتغيه، وسط الطرق المقفلة بالحواجز، بين حي وآخر، تحتاج إلى أكثر من دورة التفافية في السيارة. في هذه الأثناء، ما عليك إلا أن تعاينَ مشاهد الخراب: بناية على وشك السقوط. ستائر من دون شبابيك. فتحة في جدار أحدثتها قذيفة مدفعية. آثار جنزير دبابة فوق الإسفلت. هوائيات بث معطّلة. أصص نباتات على شرفة مهجورة. شعارات مضادة لقناة "الجزيرة" على حاويات القمامة. صيدلية مغلقة (تناوب 24/24)، صالة أفراح بزجاج مكسور. بائع شاي على دراجة هوائية عند خط تماس. سائق التاكسي المغامر، سوف يروي حكايته أيضا "بعد مناورات شاقة، تمكّنتُ من زيارة بيتي في داريا. كان التيار الكهربائي مقطوعاً منذ أيام. أفرغت الثلاجة من محتوياتها الفاسدة، ثلاث تفاحات فقط، لم ينلها العطب. حملتها وخرجت: هذه واحدة من التفاحات الثلاث.. تفضل

مروج الذهب

2012/11/7

القذيفة الضالة، أصابت الطبقة الثالثة من البناء المجاور لمكان عملي. من النافذة المقابلة، بدت أحشاء ذلك المنزل مكشوفة على الملأ. مكتبة

مائلة على جدار. مجلدات كتب تراثية، كانت مصفوفة بإتقان. وكنبة فارغة، وجهاز تلفزيون. كنت أتساءل هل كان بين تلك الكتب "مروج الذهب" للمسعودي، أم "تاريخ الأمم والملوك" للطبري، أم "البيان والتبيين" للجاحظ؟ ومن كان يجلس إلى الكنبة، قبل لحظات من الحادثة؟ وهل قرأ خبراً عاجلاً عن موته البطيء، أم أن القذيفة أوقفت البث مع شهقاته الأخيرة؟

صناعة الكابوس

2012/12/15

ولكن ماذا تفعل في صبيحة السبت؟

لا تيار كهربائياً، وشبكة الإنترنت معطّلة منذ ثلاثة أيام. هواتف الأصدقاء خارج التغطية. صوت الراجمات وحده، ما يؤكد أن أحدهم يعمل بحماسة، نحو أهداف غير مرئية. الراجم ليس لديه إجابة حاسمة عمّا يحدث في الجهة الأخرى. إنه ينفذ الأوامر وحسب، وليس مطلوباً منه أن يفكّر: هل ذهبت القذيفة إلى شارع، أم إلى حديقة، أم إلى بيت؟ فالمهم صناعة الكابوس، لا قياس درجة تأثيره على أجساد الضحايا.

عشرون شهرا، ثمّانون أسبوعاً، ستمائة يوم. ولكن مهلاً، كيف يمكننا إحصاء عدد القتلى والمفقودين ومعاقي الحرب، ومرضى الحرية المخطوفة، والمهجّرين، وآلاف الأميال من اللافتات والشعارات، والأعلام، والخرائط،

واختلاف المعاجم في تفسير معنى البلاد، وأنواع القذائف، وأسماء الأسلحة، والتخوين، والإقصاء، والتشبيح، والتشبيح المضاد، والخواجز، والمجازر، والأحزاب الوهمية، ومنظمات حقوق الإنسان، واللصوص، والعشّاق، والمخطوفين، والفتاوى، وأصحاب الثأر؟ كتبتُ لصديق عراقي يعيش في أمريكا، في توصيف أحوالنا: نعيش نسخة عراقية منقّحة، فأجابني مطمّئناً: هذه مجرد بروفة أوليّة، لما سيقع غداً.

"هناك جريمة لا تحتمل أردّد عبارة من ج.م. كويتزي أوردها في روايته "في انتظار البرابرة"

البرابرة وحدهم من يضفي على المكان سطوةً أقوى.

أسلّي وحدتي باسترجاع أقوال مأثورة عن البرابرة، في يوم سبت عادي. الشارع هادئ، بالكاد يعبره أحد. شبابيك شرفة جارتي الأرملة الأرمنية العجوز مغلقة منذ أسبوع.

قبل أن تغادر بيتها، علّقت على حبل الغسيل بيجاما رجّالية قديمة، ربما أخرجتها من خزانة الذكريات. على الأرجح، كي توهم اللصوص المتوقعين بأن هناك من يقطن في الداخل.

أقعُ أولاً على عبارة من ت.س. اليوت، في "الأرض اليباب":

(لسوف أريك الخوف في حفنة تراب)

ثم من "الرجال الجوف":

(نحن الرجال المحشوون، نتمايل معاً كرؤوسٍ محشوّة بالقش)

ومن مستعمرة العقوبات لـ"فرانز كافكا":

(بجّل رؤساءك)

ومن قسطنطين كفافيس في "البرابرة قادمون":

(عندما يأتي البرابرة سوف يضعون القوانين)

وإن شئت جدارية ضخمة بنسخة جديدة من "غيرنيكا" بيكاسو، أو صرخة بابلو نيرودا "تعالوا انظروا الدم في الشوارع" لا قاموس جديداً لاستيعاب ما يحدث اليوم. لا معنى للنصر، أو الهزيمة، في بلاد تحوّلت تضاريسها إلى مقبرة جماعية.

الموتى لا يفكرون بقبورهم. على الأحياء تدبير أمر دفنهم، عند تخوم حقل ألغام، أو في حديقة مستشفى، أو قرب فناء مدرسة مهجورة. الجثث المتفحّمة لا تحتاج إلى من يعتني بها، فقد اختلطت برائحة الهواء.

كنتُ قد سجّلت ملاحظة استوقفتني أثناء خروجي من صيدلية في ساحة الشهبندر، إذ لفتت انتباهي ورقة بيضاء عند مدخل البناية المجاورة للصيدلية، تحمل عبارة واحدة مكتوبة بالأزرق: "يرجى عدم لصق النعوات هنا"

على الأرجح أيضاً، فإن الطبيب الذي وضع هذا الإعلان، أمام جدار عيادته، قد ضاق ذرعاً بملصقات الموتى، بالإضافة إلى خشيته من سوء

الطالع. ورقة نعوة، فوق ورقة نعوة أخرى قديمة، ثمّ أقدم. في كل خطوة، هناك ورقة نعوة. بالنسبة لمن لديه الرغبة في القراءة، سيجد عبارة مكررة" وفاة الشاب (...) بحادث مؤسف.

بالطبع لم يعد حادث مرور مثلاً، يستدعي الأسى، إذ بات للموت درجات، ووفقاً للطريقة أو الأسباب التي تنهي حياة شخص ما، تتصاعد حدّة الأسف، فالموت برصاصة قنّاص يختلف تماماً عن الموت بسبب عملية جراحية فاشلة في القلب، ذلك أن المثال الثاني للموت نافل، ويفتقد إلى حماسة الراوي في شرح التفاصيل.

اختفاء علي بربندي

2012/12/28

علي بربندي، أشهر بائعي الدخان المهرّب في دمشق، ببزته المرقّطة التي يخفي تحتها مخازن أسلحته من المارلبورو الأمريكي، والجيتان الفرنسي، والسيجار الكوبي المزوّر. احتلّ ركناً عند ناصية "شاورما الريّان" في شارع العابد، ثمّ انتقل إلى جوار حاجز شرطة المرورعلى الناصية المقابلة، بطاولة خشبية عرجاء، تحتوي مختلف أصناف التبغ. اختفى علي بربندي مساء يوم خميس، على يد قنّاص في أحد شوارع حي زملكا، عند تخوم دمشق. لاشك أن القنّاص اعتبره صيداً ثمّيناً ببزّته المرقّطة، لجهله بأن علي بربندي كان يرتدي هذه البزّة، قبل الحرب أيضاً، لأنه لا يمتلك سواها،

أو إنه كان يرتديها على الدوام للتمويه على دوريات شرطة مكافحة التهريب.

كدمة سوداء

2012/12/30

تلحُ عليّ منذ الصباح، صورة رجل عجوز ملقى على قارعة طريق ترابي في إحدى قرى الشمال، وآثار دم على صدغه الأيسر، إلى جانب دراجة هوائية، وأسطوانة غاز.

علينا أن نعيد الشريط إلى الوراء قليلاً كي نتخيّل المشهد كاملاً الرجل، بعد مكابدات مضنية، حصل على اسطوانة غاز من مركز توزيع بعيد، ثمّ وضع الأسطوانة في الصندوق الخلفي للدراجة، وانطلق عائداً إلى بيته بمشاعر مضطربة، هي مزيج من نشوة الانتصار، والألم عمّا آلت إليه أحوال البلاد والعباد. بالطبع لن يظهر القنّاص في الصورة. على الأرجح، فهو كان يراقب عبور الدراجة من سطح بناية مجاورة، أو من وراء شجرة محاذية للطريق، قبل أن يسدّد رصاصة واحدة من مسدسه نحو صدغ الرجل العجوز. ارتبكت حركة المقود قليلاً بحركة التفافية مفاجئة، فأطاحت طمأنينة الرجل، ووقع أرضاً، إلى جانب الدراجة واسطوانة الغاز. سمح القنّاص للمصوّر بأن يلتقط المشهد كما هو، أو ربما التقط الصورة بنفسه، على سبيل الذكرى، لكننا، في حال، عدّنا بعد دقائق إلى مكان الحادثة،

سنجد، فقط، رجلاً ممدداً إلى جانب الطريق بكدمة سوداء على صدغه الأيسر.

مذابح

2013 /1/7

مذبحة أمام فرن. مذبحة أمام محطة وقود. مذبحة في قرية نائية. حريق في مخيّم للجوء. نازحون في الحدائق العامة. مطر غزير في الخارج. ليس بوسعي أن أتكلّم عن المطر، أو أن أستعير إيقاعات بدر شاكر السيّاب في هذا الشأن: "مطر، مطر، مطر أفكّر بكيفية امتزاج ماء المطر الأول ببقايا الدم الجاف في الشوارع، من دون شهقات الضّحايا.

نشرة الطقس تتنبأ هطول الثلج بعد غد (الأربعاء/1/9) في دمشق. هل ستكفي كمية الثلوج التي ستهطل بعد غدٍ، لمحو صور تتعلّق بمذبحة أمام فرن، أو بمذبحة أمام محطة وقود، أو بمذبحة في قرية نائية.، أو بحريق في مخيّم للجوء. أو بنازحين في الحدائق العامة؟ عبثية المشهد العمومي وحدها من يستدعي مثل هذه الألعاب اللغوية.

تقرير عن المختفين

2013/1/11

ما نحياه اليوم من ضروب الوحشية، سبقنا إليه الآخرون بسنوات طويلة.

نتسّلى بساعة رملية لتفتيت خريطة الوقت، عن طريق إحصاء عدد القتلى والمفقودين وأماكن الخراب.

كان "نيك كيسترو" في كتابه "تقرير عن المختفين" أثناء عهد الديكتاتورية العسكرية في الأرجنتين، قد أنجز جانباً من المهمة: "بوسع المرء أن يتأمل فقط في الروايات عن الوحشية التي أخذها معهم آلاف القتلى إلى قبورهم غير المعلّمة"، وأيضاً "أنا وحدي من أفلت كي أروي لك"

بفارق نصف قرن

2013/1/14

حكايات الديكتاتوريات، وجمهوريات الموز، وقصص المخطوفين، والإبادات الجماعية، والحروب الأهلية، والأوسمة الوهمية على صدور الجنرالات، وصلت إلينا متأخرة نحو نصف قرن، ليس عن طريق الترجمة وحدها فحسب، بل كوقائع معلنة، أو صورة طبق الأصل. روايات على هيئة طرود بريدية (تُفتح بالذات)، فلكلٍ منّا حصته من وليمة القتل

الباذخة، وفقاً لطريقته المفضلة. بإمكانك أن تصحب ميجيل انخل اوستریاس في "السيد الرئيس بطغيانه وشهوته للسلطة وشفافية أوامره في القتل والتنكيل بمعارضيه، وسوف يرسم غابرييل غارسيا ماركيز صورة أخرى للطاغية في "خريف البطريرك" عن طريق مزج ألوان متعددة للجنرالات فوق قماشة واحدة للاستبداد، فالبطريرك هنا، لديه خبرة عالية في الأعمال الدموية فقط، أما المشهدية ثلاثية الأبعاد، فسنقع عليها لدى ماريو فارغاس يوسا في "حفلة التيس"، إذ يحلّ الديكتاتور "محلّ الرّب" قبل أن يرثه المنقذ بالمواصفات نفسها. نحن على موعد إذاً، مع موسوعة ضخمة في "البلاغة الرثة للديكتاتورية"

أخاديد آلام الأمس

2013 /1/27

أن تنظر إلى المرآة صباحاً، ولا تتعرّف بدقة إلى ملامحك. الرغوة تجرف في طريقها، أخاديد آلام الأمس. الاضطراب والشرود يخلّفان جرحاً صغيراً، بإلحاح شفرة الحلاقة.

تحاول أن تكنس بقايا الكابوس الطويل بأحلام يقظة تدرك بأنها لن تتحقق بسهولة.

المرآة وحدها من يؤرخ طبقات الجحيم في تضاريس الوجه.

رحلة الآلام

2013/1/27

سائق السيارة المستأجرة الذي يرافقني إلى مواعيدي، فقد سمعه منذ أمد طويل.

أكتب له على ورقة صغيرة، المكان الذي نقصده. يهز رأسه موافقاً ثمّ ينطلق بحماسة، مخترعاً طرقاً جانبية للالتفاف على الحواجز. بالطبع، لن يسمع صوت الانفجارات التي تحدث خلال الرحلة. فقط يستغرب حدّة الزحام وجنون السيارات المفاجئ، واحتضار أخلاق البشر، ثمّ يختزل المأساة السورية بعبارة واحدة، يكررها في الأمتار الأولى للرحلة: لولا الحرب، والحواجز لقطعنا المسافة من شارع الباكستان إلى كورنيش الميدان، بأقل من ربع ساعة، فيما كنّا اختزلنا الطريق إلى أوتوستراد المزة بخمس دقائق فقط. لكننا، في كل مرّة سنحتاج إلى ساعة ونصف كي نعبر الحاجز الأخير. لدى "أبو صخر" مأساة واحدة، هي كيفية تسديد قرض السيارة التي ابتاعها بالتقسيط، وارتفاع ثمّن البنزين، ونكران شقيقته الكبرى غادة حصته في ميراث العائلة. من جهتي أفهم الأمر بأنه عليّ أن أسدّد مبلغاً إضافياً، مقابل الدعاء الإلهي الذي يمطرني به في نهاية رحلة الآلام.

دائرة نفوس الكتائب المسلّحة

2013/1/28

ضاقت دائرة نفوس الثورة بأسماء الكتائب المناوئة للنظام (كتيبة التوحيد، كتيبة أحرار الشام، كتيبة الفاروق، أحفاد الرسول، درع الإسلام، القعقاع، الأبابيل، ذو النورين، العباس، جبهة النصرة، سيوف الحق، درع الشام، مجد الخلافة...). أسماء مستلة من زمن الفتوحات الإسلامية الأولى تتبارى في ما بينها على الغنائم، في غزوات متتالية على المدن والدساكر والثغور. مهربون سابقون، وقطّاع طرق، وعاطلون من العمل، وإسلاميون متشددون. إمارات صغيرة تبث الرعب بين الأهالي. لا تحتاج مثل هذه الكتائب إلى مؤرخين مثل الطبري وابن الأثير والمسعودي، لتوثيق مآثرهم وبطولاتهم وأمجادهم. يكفي بث شريط مصوّر لهجوم على موقع عسكري، أو مذبحة صغيرة في قرية نائية، كي يجد هؤلاء من يموّلهم للقيام بعمليات أخرى أكثر بطشاً، مقابل خبر عاجل على الشاشات. آخرون وجدوا ضالتهم بفرض الإتاوات على أصحاب المعامل، وخطف أصحاب المنشآت مقابل فدية مجزية، أو سرقة الآثار، أو المصانع، أو مخازن الحبوب. في غياب القانون يتحوّل الغراب على الشاشة إلى عصفور غرّيد في أرشيف الثورة المخطوفة. وحدهم العلمانيون لقالق عند أطراف المستنقع.

بحيرة مليئة بالتماسيح

2013 /1/29

ما يحدث لنا اليوم، حدث على نحو مشابه في قصة "على قطيفة" للألماني هاينتس ريسه: رجل يعبر جسراً ضيّقاً للقطارات فوق بحيرة. فاجأه قدوم قطار بضائع في غير موعده، ولم يكن أمامه مفرّ: إما أن يدهسه القطار، أو أن يلقي بنفسه إلى بحيرة مليئة بالتماسيح.

عدسة عمر أميرلاي

2013 /2/5

على سفح جبل قاسيون، يرقد جثمّان عمر أميرلاي (1944–2011)، كأنه اختار مكاناً يتيح له تثبيت العدسة على منظر بانورامي لدمشق كي لا يفوته المشهد كاملاً. هل يدير حواراً الآن مع الشيخ محيي الدين بن عربي الذي يرقد على بعد أمتار منه، حول معنى التصوّف، أم أنه يضع اللمسات الأخيرة على الجزء الثاني من "الطوفان"؟

ليلة رحيله في ظهيرة 5 فبراير، كان مطر خفيف يبلل الشوارع، فيما كانت الصورة مثبّتة على "ميدان التحرير" في القاهرة، وبدا أن زمناً عربياً آخر يعلن مخاضاً مختلفاً. جلطة دماغية مباغتة، ألغت مشاريعه المؤجلة في توقيت سيئ. غيابه الباهظ فاتورة لا تعوّض، في لحظة غائمة، فنحن أحوج

ما نكون إلى حكمته الجليلة لمعرفة جهة البوصلة الصحيحة، وإدارة الخطة بدقة وبأخطاء أقل.

كارثة حقيقية أن يغيب سينمائي من مقام عمر أميرلاي، لحظة تراكم مواد خام نادرة لصناعة شريط استثنائي لا يمكن أن يصنعه أحد سواه بالخرائط نفسها ووضوح دقة العدسة. وكي نقلل من حجم الخسائر سنقول في عزاء أنفسنا "ألم يطلق الشرارة الأولى للنفير؟"، ذلك أن الأرشيف الذي يحمل توقيعه لا يضاهى، فهو واحد من قلائل ممن وضعوا الفيلم التسجيلي السوري في مكانة رفيعة. أشرطة لا تساوم و لم تذهب يوماً إلى النبرة الفلكلورية والسياحية التي نجدها في مقترحات الآخرين.

شخصياً، سأعود على الدوام، إلى شريطه "الحياة اليومية في قرية سورية" (1974)، وأنا أتتبع الوجوه البائسة والكالحة لبشر يعيشون في قرية بعيدة، تحت وطأة الإهمال، والأمراض المستعصيّة، والعسف العشائري والحكومي. قرية "مويلح" عند حدود دير الزور – الحسكة، لا تبعد عن قريتي أكثر من كيلومترات، لكنها صورة طبق الأصل عن ذلك البؤس. إثر مشاهدتي الأولى للشريط، قلتُ لنفسي "أنا واحد من هؤلاء التلاميذ الحفاة الذين نشأوا في العراء"، لكن الخطأ الذي ارتكبته، هو أنني غادرت إلى دمشق لأحقق مشروعي هناك، فيما صفعني عمر أميرلاي بصورة صاعقة، ستكون درساً بليغاً لي، فقد قطعت مسافة ألف كيلو متر كي أكتب نصي الخاص، وإذا بي أكتشف بأنني تركت نصي ورائي. هل كان عليّ أن أوقّع هذا الشريط بنفسي؟ ولكن من يجاري عمر أميرلاي في فضح الخزي، وطبقات العار، وأفعال البرابرة؟

لماذا نحارب؟

2013 /2/6

انتهى قائد الكتيبة 309 إلى مهنة جديدة، هي قطع الأخشاب ورعي الماعز في جبال "أطمة" عند الحدود السورية– التركية. اكتشف المحارب السابق أن الثورة الحقيقية في سوريا انتهت، بعد سنة ونصف من القتال في حلب. يتساءل "أبو محمود": "لماذا نحارب، ولأجل منْ نموت؟"، ويضيف في حواره مع وكالة الأنباء الفرنسية "ثورتنا الجميلة سرقها اللصوص والفاسدون، لقد تعرّضنا للخيانة" هكذا ألقى أبو محمود سلاحه بسبب الخذلان من شعارات الآخرين وممارساتهم ولصوصيتهم "يرسلوننا مثل الخراف التي تُساق إلى المذبح، ويبقون هم في الخلف لجني المال"

أوركسترا الحرب

2013 /2/9

أحتاجُ إلى خبيرٍ عسكري كي يشرح لي بدقّة، ما هو الفرق، بين هذه القذيفة أو تلك. المكونات والمدى المجدي، ودقة الإصابة. اعتباراً من مطلع شباط، انضمت إلى اوركسترا الحرب، قذيفة لا تشبه ما اعتدناه في الأشهر الماضية. قذيفة بصوت ينطلق على دفعات. تفاعلات كيميائية غامضة تنتهي بانفجار ضخم يتدحرج من جبل قاسيون نحو الضواحي

المشتعلة. أظنُّ أن هذه القذيفة، على وجه التحديد، بإمكانها التهام نصف شارع بدقيقة واحدة.

الأحمر بكافة تدرّجاته

2013/2/14

لا نحتاج إلى من يذكّرنا باللون الأحمر كي نعيش بهجة "عيد الحب" العرض متواصل منذ نحو سنتين بنجاح ساحق. أينما اتجهت ستجد الأحمر بكافة تدرجاته اللونية في أضخم غاليري مفتوحة في الهواء الطلق. بلاغة اللحظة تحتمل أن نقول حتى الياسمين بات ملطخاً بالأحمر. انفجار عبوة ناسفة عند سور حديقة مثلاً، كفيل بأن يطرش شجرة ياسمين بدماء الضحايا العابرين، أو أن يتلوّن الكفن الأبيض بنقاط حمر، نظراً لدفن أحدهم على عجل، أو أن الكدمة الحمراء الداكنة في جبين من تلقى رصاصة قنّاص سوف ترسم دائرة فوق الأبيض. دكاكين الهدايا لم تزيّن واجهاتها بالدمى، جرياً على عادتها في مناسبة كهذه. ساعي بريد الدم أوصل هدايا مجانية للجميع قبل موعدها على هيئة طرود مدموغة بالأحمر. جنازات يغطيها العلم الوطني، وأخرى ملفوفة على عجل بما تبقى من أعضاء، ورسائل عشاق وصلت بعد موت أصحابها بقليل. العشق السوري يعيش لحظة نيرفانا قصوى. نشوة كليّة في الفناء لا يضاهيها مشهد انتحار البجع الجماعي. المحكومون بالأمل خضعوا لمجاز آخر عن طريق تحويل الأمل إلى ألم. يرتّلون "ألف لام ميم" بخشوع. لن

يلجأ العشاق هذه المرّة إلى معجم نزار قباني لترميم عطب أرواحهم، ربما سيجدون لدى لوركا ما يبتغونه في توصيف أحوالهم. الشاعر الأندلسي القتيل المضرج بدمائه يتجوّل في شوارع دمشق، جحيم الهلاك، وفردوس البرابرة، ونارنج الأسلاف. لا عليك، بإمكانك أن تلتقي من تحب عند حاجز يحتاج عبوره إلى حاجزٍ آخر، ساعتين وربما أكثر بقليل. افترشْ العراء، وابتعد عن زحام المنكوبين، وردّد وصاياك في العشق. تذكّر عبارة كنت استعرتها من جدّك الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي أثناء زيارتك الأخيرة لضريحه عند تخوم قاسيون، وتحت مرمى القذائف "أدين بدين الحب أنى توجهت/ ركائبه فالحب ديني وإيماني"، أو فاستعن بمحمود درويش، وانشد "في دمشق ينام غزال إلى جانب امرأة في سرير الندى، فتخلع فستانها وتغطي به بردى" في هذا المقام، دع رأس المعرّي المقطوع جانباً، والتفت إلى ما تبقى من حواسك كي تتأكد جيداً بأنك مسجّل على قيد العشق، وليس مسجّلاً على قوائم المطلوبين.

منحوتات عاصم الباشا

2013 /2 /18

حين اضطرّ النحّات عاصم الباشا إلى مغادرة محترفه في بيرود، إثر اشتداد القصف على المدينة، وزّع بعض منحوتاته على أصدقائه برسم الأمانة، أما بقية المنحوتات فقد قام بدفنها تحت الأرض، على أمل أن تنجو من الهلاك. في حال اكتشف أحد ما، في يومٍ ما، مقبرة لمنحوتات

معدنية، على هيئة بشر وطيور ومسوخ، فاعلموا بأنها منحوتات عاصم الباشا.

حرب التماثيل

2013/2/18

هناك أيضاً، حرب التماثيل! مجموعة تكفيرية تقطع رأس تمثال المعرّي في مسقط رأسه (معرّة النعمان– 2013/2/12).

التمثال الذي صمّمه النحّات فتحي محمد لمناسبة ألفيّة صاحب "رسالة الغفران" في العام 1944، كان هدفاً لفتوى تبيح تحطيم النُصب التذكارية باعتبارها أصناماً جاهلية، تخصّ سلالة رئيس البلاد. هذه الفتوى كانت عابرة للحدود، فبعد أيام من هذه الحادثة، اختطف مجهولون تمثال طه حسين في مدينة المنيا المصرية. آخرون اكتفوا بتغطية رأس تمثال أم كلثوم بالأسود. كأن ما يجري اليوم هو استكمال لمحاولة اغتيال نجيب محفوظ، قبل سنوات، بسكين في العنق.

لكل واحد من هؤلاء المتهمين بالإلحاد والزندقة والهرطقة، سجاله الجريء والمفارق في ما يتعلق بتفسير الدين، وكأن ما يحصل في ظل هيمنة المتشددين على مواقع القرار، هو تصفية حساب جمعي بأثر رجعي لكل الرؤوس المشتعلة واقتلاع أفكارها إلى الأبد، وإعادة تموضع لحراثة أرض جديدة تخلو من أي "بذرة شيطانية" تُعمل العقل، أو تحيي السجال الفكري

الحلّاق، في محاكمة قمعية من طرف واحد، تعيد الاعتبار إلى مشهد حرق كتب ابن رشد، أو صلب الحلاج، أو قتل السهروردي، وإطفاء شعلة كل ما هو مضيء في تاريخ التراث العربي واختزاله إلى عناوين ظلامية وغيبية. لا يمكن عزل ما حدث لهذه التماثيل عن حوادث نهب المتاحف أو تدميرها، فقبل قطع رأس المعري، تعرّض متحف معرة النعمان للنهب والدمار، في مشهد مشابه لما جرى للمتحف المصري، وقبلهما متحف بغداد عشية الاحتلال الأمريكي للعراق، بالإضافة إلى تدمير عشرات المواقع الأثرية والأسواق القديمة والقلاع، وكل ماله صلة بالتراث الإنساني بقصد طمسه وتشويهه واندثاره. ثقافة جز العنق في جوهرها، هي الوجه الثاني لثقافة السحل التي ابتكرها انقلابيو حقبة الستينيات في تصفية أعدائهم، ولن نجد ما بينهما ما يشبه محاكمة طه حسين إثر معركة "في الشعر الجاهلي" التي انتهت ببراءة الأخير، ولن يجد أعمى البصر مكاناً له، بين عميان البصيرة، في هذه الحرب المفتوحة ضد العقل، ولن يردّد محمد مهدي الجواهري، مرّة أخرى، قصيدته "قف بالمعرّة وامسح خدها التّربا" القصيدة التي ألقاها في العام 1944 لمناسبة ألفيّة أبي العلاء. كان طه حسين واحداً من ضيوف تلك المناسبة، ولعله أحسّ بأن الجواهري يخاطبه شخصياً، نظراً لتشابه سيرتهما الحياتية والفكرية بخصوص الشك والتشاؤم والجدل. ألم يختر طه حسين المعري موضوعاً لأطروحته الأولى في الدكتوراه؟ لكن حماسة صاحب"الأيام" لم تتوقف عند حدود الاحتفاء بفكر "فيلسوف الشعراء"، إذ تبرّع بمبلغ خمسة آلاف جنيه لإتمام بناء ضريح المعري، في مسقط رأسه، وإعادة نشر مؤلفاته. ليست المصادفة إذاً، هي من جمعت

اليوم، المعلم وتلميذه في محنتهما، بل الردّة الثقافية التي بدأت ترخي ظلالها على الساحة العربية في هذا الربيع الغائم، في محاولة مبكرة لإقصاء أية نبرة علمانية، أو تنويرية، تحفر في الأرض المحروقة، وإقامة الحدّ على التفكير في المهد. قل إنه جحيم دانتي، في النسخة الثانية من "رسالة الغفران"

(بعد خمسة أشهر على هذه الوقائع، قامت مجموعة تكفيرية أخرى بتفجير تمثال أبي تمّام (803–845)، ظهيرة يوم الثلاثاء 9 تموز، في قرية جاسم، مسقط رأسه، في حوران، وبقي كتابه "الحماسة" شاهداً على خلود حبيب بن أوس الحارث الطائي في مخزن الذاكرة، ولكن، هل نسي هؤلاء التكفيريون تمثال الشاعر في مدينة الموصل، مكان دفنه، وماذا يفعلون ونحن نردّد، منذ أكثر من ألف ومائتي عام، مع أبي تمّام: "كم منزل في الأرض يعشقه الفتى/ وحنينه أبداً لأول منزل"؟).

(في صبيحة يوم الأربعاء 2 تشرين الأول، حطم إرهابيون تابعون لما يسمى دولة الإسلام في العراق والشام تمثالاً للخليفة العباسي هارون الرشيد في حديقة وسط مدينة الرقة بذريعة إن الإسلام يحرّم التماثيل والأصنام، وكان الإرهابيون قد احرقوا قبل أيام تماثيل وصلباناً في كنيستين مجاورتين للحديقة، ما أثار موجة غضب بين أهالي المدينة).

صكوك غير صالحة للاستعمال

2013/2/21

في العام (1948) اعتمدت الجمعية العامة في الأمم المتحدة "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، ومنذ ذلك التاريخ صدرت مئات المواثيق والمعاهدات والصكوك الدولية حول حقوق الإنسان، لكنها، أقله عربياً، بقيت في معظمها حبراً على ورق. ستة عقود على هذا الإعلان، لم تؤثر في الأنظمة العربية في ما يخص انتهاك مبادئ حقوق الإنسان، رغم توقيعها على معظم المواثيق الدولية في هذا الشأن. هكذا سعت المنظمات غير الحكومية للعمل في شروط قاسية لتفعيل هذه القرارات والمواثيق باتجاه تعزيز الديمقراطية، والتنمية البشرية المستدامة، والحقوق المدنيّة والحريّات العامة، وإشاعة ثقافة التسامح والتنوّع واحترام الآخر، والشفافية. بالنسبة للمواطن العربي، في هذه اللحظة الفاصلة، فإن قراءة بنود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ستصيبه بصدمة، لن يستيقظ منها بسهولة، إذ في حال امتحن نفسه في الحقوق التي حصل عليها، والتي أتت في 30 مادة، سينال علامة الصفر بالتأكيد. أينما توجه سيجد عقبة في طريقه. سوف يتلمّس أعضاءه، وهو يقرأ المادة (5) مثلا "لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة السيئة أو العقوبة القاسية التي تحط بإنسانيته وكرامته" وسيبتسم بمرارة أمام المادة (9)، متذكّراً رعبه أمام كوّة الأمن في المطارات "لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً" ولكن ماذا بخصوص المادة (19)، أليست نوعاً من الفكاهة المسليّة؟ نقرأ "لكل شخص حق التمتع

بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها للآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود"

هناك نحو 150 معاهدة تخص حقوق الإنسان، تحمل دمغة الأمم المتحدة، وتواقيع الدول الأعضاء عليها، ورفض دول أخرى الموافقة على بعض هذه المعاهدات، خصوصاً تلك التي تتعلق بالتمييز العنصري، وحقوق المرأة، وجرائم الإبادة الجماعية. لكن بنوداً أخرى، ستنال موافقة جماعية، ليتمّ انتهاكها لاحقاً، مثل "المبادئ الأساسية لمعاملة السجناء"، و"حماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري"، و"اتفاقية المساواة في الأجور و"معاملة أسرى الحرب" و"استخدام التقدّم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية" عربياً، امتنعت بعض الدول التوقيع على المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وخصوصاً بما يتعلّق بالحقوق السياسية، وأشكال التمييز ضد المرأة، والاتفاقية الدولية المناهضة للتعذيب، وحماية حقوق العمال المهاجرين وأسرهم. معظم التقارير التي رصدتها منظمات المجتمع المدني، في ما يخص انتهاك حقوق الإنسان، انتهت إلى الأدراج المغلقة في مكاتب الأمم المتحدة، تبعاً لسطوة هذه الدولة أو تلك، في المنظمة العالمية، بالإضافة إلى تبعية بعض هذه المنظمات لأجندات خاصة، تنفي عنها دقة المعايير في توثيق تقاريرها. سياسات واستراتيجيات هذه المنظمات على أهميتها في تنشيط الحراك المدني، ظلت في موقع شبهة من الحكومات العربية، ولطالما طورد ناشطون في هذا المجال، وأغلقت مكاتبهم.

هنا، في هذه الجغرافيا الضالة، لا معنى لأن تتكلّم عن "حقوق الإنسان"، فقط، هناك قلادة فولاذية تتدلى من العنق بثلاثين انتهاكاً، مثل ميراث مقدّس. قلادة لفرط ثقلها، علّمتنا كيف نمشي محدودبي الظهور في شوارع الخنوع والخوف والندم.

مصائر معلّقة

2013/3/20

عند نقطة الحدود السورية اللبنانية، سوف يخيَّل إليك أن كل السوريين يغادرون البلاد. رتل طويل من الحافلات، حشود بشرية تتكوّم أمام مركز الهجرة والجوازات. وجوه شاحبة ومعفرة بالألم، تنتظر مصائرها المعلّقة، أمام كوة تأشيرة الخروج. الضابط الذي يتجوّل في القاعة الواسعة، يصرخ بالجموع، كما يتلاءم مع قطيع أغنام. الأرتال المتوازية تتحرك إلى الأمام ببطء. بالطبع لن يغادرك الخوف من أن تكون مطلوباً، أو ممنوعاً من السفر لحظات المواجهة من وراء زجاج الكوة، قبل أن يدمغ العسكري وثائقك، ثقيلة كصخرة تجثمّ فوق صدرك. تتنفس أكبر كمية من الهواء في الخارج، وأنت تدخن سيجارتك باضطراب. تقول لرفيق الرحلة العائد للتو من الطوفان "ما يحدث هنا هو تدريبات إضافية على تحطيم الكرامة البشرية المهدورة في الأصل سوف يتكرر المشهد بصيغة مشابهة عند مركز الهجرة والجوازات اللبناني. البطء المتعمّد في إنجاز العمل، كأن ينصت الدركي إلى نكتة من زميله، أو ينهض عن كرسيه لشأن ما، ثمّ يعود بعد

دقائق، ليعبث بصفحة معلوماتك على حاسوبه المثقل بالأسماء، للتأكد من أنك لست شخصاً خطراً. هنا أيضاً ستفحص ما تبقى من كرامتك المهدورة، وهي تذوب تدريجياً مثل قطعة ثلج مهملة.

تاء مربوطة

2013 /3/21

في بيروت، لا تحتاج إلى عناوين الأصدقاء الذين غادروا سوريا باكراً، تحت وطأة الظروف المستجدّة. جولة واحدة في شارع الحمراء تكفي للاصطدام بعشرات المنفيين والمهاجرين والعاطلين من العمل. في مقهى "تاء مربوطة" ستلتقي آخرين، يتوزعون الموائد بانتظار فرصة إضافية للحياة. الحنين سيهطل باكراً من سقف المقهى إلى شوارع دمشق ولياليها. الذي لم تلتقه نهاراً على رصيف شارع الحمراء، ستجده بالتأكيد مكوّماً، آخر الليل، فوق مائدة في حانة "مزيان" بوح المحزونين يزداد طرداً مع ارتفاع نسبة الكحول في الرأس.

طائر مقصوص الجناح

2013 /3/23

ليس لدى الشعر ما يفعله هذا العام في يومه العالمي. طائر مقصوص الجناح في قفص معدني. الرصاص يحاصره من كل الجهات. رائحة الدم

تتسرب فوق العشب. الربيع ينبت مقابر وجنازات. مأتم طويل ينتهي بنفق معتم. "ديوان العرب" يخلو من الضيوف. المنابر أعارت ميكرفوناتها لهتاف آخر، تحت وطأة الموت، في الساحات. لا أحد، عدا حنجرة بابلو نيرودا تصرخ "انظروا الدّم في الشوارع" هدية منظمة اليونسكو للشعر، لم تصل في بريد هذا الربيع. حاجز مسلّح اختطف القصيدة، عرّاها من المجاز، وألقى جثتها وسط الطريق.

تعليمات من أجل النجاة

2013/5/8

التعليمات التي تبثها الجهات المختصّة لتفادي قذائف الهاون، في حال كنتَ تعبر الشارع، أو كنتَ في مكان مكشوف، تشبه تعليمات شركات الطيران قبل إقلاع الطائرة في كيفية استعمال أجهزة النجاة. لم يسبق أن نجا ركاب طائرة تهوي!

نبوءات يوسف عبد لكي

2013/5/9

لا أعلم سرّ شغف يوسف عبد لكي باللون الأسود. العلاقة مع هذا اللون تبدأ من باب المحترف، ثمّ الأبواب الداخلية، والنوافذ، والطاولات، وأعمدة السقف. في أعماله الجديدة لم يتخلَ عن قلم الفحم، عدا لطخات

بالأحمر تقتحم صور الشهداء، وحتى حين يرسم طبيعة ميتة، فسوف يسيل الأحمر من مكان ما. لدى مراجعة أعماله القديمة، ومقارنتها بما تلاها، يبدو هذا الغرافيكي الصارم، بأسماكه المثبّتة بالمسامير، وأزهاره الذابلة، وطيوره الميتة، وأحصنته المقيّدة، وكأنه يستكمل نفيره الأول الذي بدأه منذ عقد ونصف. هناك لمسات إضافية، استدعتها قوائم الشهداء، ونافورة الدم المفتوحة منذ سنتين. سننتبه إلى جدارية ضخمة تختزل جوانب من المأساة السورية: قدّيس ممدّد بخشوع فوق محفّة، في جامع الحسن. وفي عملٍ آخر بعنوان "أم الشهيد"، ستحدّق بنا امرأة مكلومة بصرامة واتهام وأسىً، فيما يحتشد الجدار خلفها بصور الغائبين. السمكة يحيط بها حبل مشدود بإحكام. هكذا يزداد أرشيف الموتى قتامة وثقلاً، عملاً وراء الآخر، في جناز طويل. هذه الفجيعة تتناسل من العتمة، عبر ضربات نزقة، في معالجات غرافيكية صارمة تنطوي على قدرة عالية في الإتقان والكثافة البصرية المكتنزة بالإشارات، رغم التقشف الظاهري للموجودات على السطح، فوراء هذه السكينة المراوغة، والموت المجلل بالصمت والعزلة والسخط، تكمن تراجيديا الألم. هناك ما يستدعي في هذه المساحة السوداء الكتيمة، تجربة التشكيلي الإسباني فرانسيسكو غويا (1746– 1828) في "النزوات"، لجهة تعانق الأبيض والأسود، والجدل بينهما، والهجاء اللاذع للعنف، والهلع من الموت. لعل ما قاله إدواردو غاليانو عن غويا في "الرسوم السوداء"، يلامس، على نحوٍ ما، اشتغالات يوسف عبد لكي، فبعد أن جرى نزع رسوم غويا عن الجدران، ونقلها إلى القماش، قُدّمت دون طائل في معرض باريس الدولي "لم يهتم أحد

برؤيتها، وأقلّ من ذلك بشراء تلك النبوءات الشرسة للقرن التالي، حيث الألم يقتل اللون، ويتبدى الرعب دون حياء بوجهه الحي متحف البرادو رفض شراءها أيضاً، إلى أن دخلت إليه في العام 1882 كهبة.

اللوحات المسماة رسوم سوداء تشغل اليوم أكثر قاعات المتحف ارتياداً. حينها قال غويا "إنني أرسمها لنفسي " لم يكن يعلم أنه يرسمها لنا" يؤكد إدواردو غليانو. نتأمّل أعمال يوسف عبد لكي مرّة أخرى، ربما كي نختزن بعضاً من تلك النبوءات الشرسة لهلاكنا المقبل.

(أُعتقل يوسف عبد لكي يوم 18 | 7 |2013، عند حاجز أمني، في مدخل مدينة طرطوس، و لم تُعرف أسباب الاعتقال حتى تاريخه، أي بعد مرور شهر ويومين على غيابه الغامض.

حين زرته قبل أشهر في محترفه الكائن في حي ساروجة، كان يطعم الحمام في بهو المحترف، وسألني إن كنت شهدت الانفجار الذي وقع قبل قليل، على بعد مئات الأمتار من المحترف، ثمّ قال، وهو يعدُّ الشاي "لقد أصاب الزلزال أساس البناء، هذا تسونامي جارف، لن يتوقّف" بعد ذلك أفرد على رخام الغرفة بعضاً من أعماله الجديدة، بالأبيض والأسود، وكأنه يرغب بتعزيز فكرته الأصلية "دور الفن يتمثّل بكونه شاهداً على الآلام، ورصد معاناة البشر، ويقين منسوب الأمل في قلوبهم").

أمس، كتبت هذه الملاحظة عن غياب يوسف عبد لكي، إحساس غامض قادني لكي أتذكّره، في هذا التوقيت. في الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم الخميس (22 آب)، علمت بأن الجهات الأمنية حوّلت يوسف

إلى القصر العدلي للمحاكمة، وأن عشرات المحامين توجهوا إلى هناك للمطالبة بإخلاء سبيله، ومن المتوقع أن يُفرج عنه في الساعة الرابعة بعد الظهر. ذهبت إلى محترفه في الرابعة والنصف، فلم أجد أحداً هناك. أبلغني أحدهم على الهاتف بأن يوسف ذهب إلى الحلّاق، للتخلّص من لحيته التي طالت. حين عاد كان يرتدي قميصاً أحمر بوجه هزيل، وقد فقد أربعة عشر كيلو غراماً من وزنه، لكنه لم يتخلَ عن ابتسامته.

قبلة غوستاف كليمت وخرائب تمّام عزّام

2013/5/12

كان تمّام عزّام ينشر الغسيل القذر على حبال طويلة من الألوان، معرضاً إثر آخر ثياب داخلية وقمصان وملاءات، وبقع سوداء صغيرة فوق قماش أبيض ناصع. بعد 15 آذار–2011، لم تعد ملاقط الغسيل تكفي لتجفيف سخطه عمّا يحدث حوله، فاستبدل الثياب الداخلية والقمصان والملاءات بخريطة البلاد. خريطة مطوّية باللون الأسود معلّقة على حبل غسيل، وغسّالة معطّلة مركونة إلى جدار. فراشة ملوّثة بالأحمر، ثمّ خريطة للبلاد تنزف دماً، وشاحنة تغرق داخل حوض للسمك محمّلة بحطام حديد، خوذة عسكرية تنزلق فوق سطحها خريطة العالم، فيما تبدو الجغرافيا السورية ممحوّة من الخريطة، طفل يلعب بطائرة ورقيّة محمّلة بالصواريخ والمتفجّرات، صورة شعاعية لصدر بشري، وفي الجهة اليسرى، فوق القلب تماماً، هناك ثقب أسود صغير بحجم رصاصة. في مرحلة لاحقة من

الخراب، لجأ تمّام عزّام إلى تقنيات الفنون الرقمية لاستيعاب حجم الكارثة، فاستدعى غوستاف كليمت، وفرش لوحته "القبلة" فوق بيوت مهدّمة في مدينة حمص، كما لو أنها جدارية ضخمة. الصورة التي جمعت قبلة غوستاف كليمت بالأصفر الذهبي وخرائب تمّام عزّام في كولاج متين، دارت أنحاء العالم، وكانت في يوم (1أيار) الصورة الأكثر تداولاً على موقع تويتر. الدمار الذي أصاب مدينة داريا، استدعى استحضار لوحة فرانشيسكو غويا "الثالث من مايو من الحرب الأهلية الإسبانية إلى تخوم دمشق، وكان على راقصي ماتيس أن يرقصوا بجنون في دائرة بكامل عريهم، فوق أنقاض شارع في حرستا، على بعد خطوات من موناليزا دافنشي التي كانت تنظر إلى آثار الدمار بعينين تائهتين، فيما انبثقت صرخة إدفارد مونش في ظلام جورة الشياح في حمص، وكان على سلفادور دالي أن يمطّ أحد وجوهه السريالية فوق حطام شارع آخر، فيما اختار آندي وارهول خلفية أبنية مهجورة كي يضع مجموعة رجال يصوّبون مسدساتهم نحو الرصيف الآخر. لم يتوقف تمّام عزّام عن استدعاء آخرين إلى "المتحف السوري"، إذ بإمكاننا أن نرى نساء بول غوغان التاهيتيات يفترشن الرمل بالقرب من مخيم الزعتري للنازحين السوريين في الأردن، وسوف يحتشد نازحو لؤي كيالي بكامل غضبهم في إحدى ساحات حلب.

اختفت حبال غسيل تمّام عزّام التي كان يعلّق عليها معجم الحنين إلى أمكنته القديمة، ولجأ إلى تركيب غرافيتي عنها فوق جدران صفحته في موقع الفيس بوك، كما يفعل المهجَّرون.

انتحاري في ساحة المرجة

2013/5/14

في ظهيرة يوم حار، من أيار، كانت التاكسي تقف عند حاجز عسكري في شارع خالد ابن الوليد، حين دوّى صوت انفجار ضخم، حتى أن السائق الذي كان يقلني، وهو قد فقد حاسة السمع منذ سنوات، اهتزّ في مكانه، وأشار إلى غيمة دخان كثيفة، تنطلق إلى الأعلى في مواجهتنا. جزم السائق بأن الانفجار قد وقع في شارع الحجاز، وحين وصلنا إلى هناك، تبيّن بأن الانفجار قريب من ساحة المرجة، ثمّ قبالة مبنى وزارة الداخلية، ثمّ أمام برج دمشق. كان انتحاري قد اقتحم المكان ثمّ فجّر نفسه داخل سيارة التاكسي التي كان يقودها. برج دمشق تعرى تماماً من زجاجه، فيما حصلت حالات إغماء كثيرة، بالإضافة إلى القتلى والجرحى، وبينما كانت سيارات الإسعاف تنقل المصابين، كان بعض المارين في المكان، ممن لم يصب بأذى، يحصي حصته من أجهزة الهواتف النقالة التي غنمها من المحلات التي باتت بلا واجهات تحميها من النهب.

كانت (عبير. د) التي تعمل في مكتب لتصدير الأدوية، في الطبقة السادسة من البرج، موجودةً هناك، لحظة التفجير، وقد أُصيبت بشظايا بسيطة، و لم تكترث للدماء التي كانت تلوّث قميصها بسبب إسعاف زميلها إلى المستشفى. ما بقي مطبوعاً في ذاكرتها من تلك الحادثة، كما تقول بأسى، مشهد ذلك الشاب الذي انشغل بإحصاء غنائمه وسط فوضى المكان، إذ تناثرت علب التبغ أمامه، بعد إصابة البائع، فاختطف

علبة مارلبورو من الأرض، على عجلٍ، مسحها من الدماء العالقة على غلاف العلبة ودسّها في جيبه ومضى..

(في اللحظة نفسها، كان أحد المجاهدين في حمص، يروي على الشاشة بأنه شاهد بعينيه خالد بن الوليد بسيفه المسلول يشار كهم القتال هناك).

سلّم محمد ملص

2013 /5/16

كان على محمد ملص أثناء تصوير فيلمه "سُلّم إلى دمشق" أن يكتب بالعدسة اللقطة المتخيّلة، فيما كانت اللحظة المعاشة خارج الكادر تفرض نفسها قسراً، على مجريات الشريط، كأن تقع قذيفة بالقرب من موقع التصوير، ما يستدعي إعادة تصوير اللقطة المتخيّلة، لتظهيرها من صوت القذيفة. زيادة الاختناق، ورائحة البارود التي التصقت بثياب الممثلين، وجدران الغرف، وملاءات الأسرّة، فرضت عليه استعمال عدسة أخرى لتوثيق هذه اللحظات. وسوف يكتب في يومياته "ما آلت إليه أحوالنا أسوأ بكثير من فرصة التوقع أو الرهان. فقد مادت الأرض من تحتنا وتحولنا من شعب إلى كومة حطب ليس لها من دور سوى أن تموت قتلاً، أو صلباً أو كمداً، أو أن تفر، أو تهاجر. نحن نطارد يومياً من قبل الموت والخطف والسلب أو من الصدفة العمياء. وبين النفس والآخر؛ وبين الحائط والباب، نتابع مشاهد حياتنا ومصائرنا في كادرات سينمائية ومشاهد متقنة ومصنوعة

بأحدث الطرق من دون أن ندري، هل نحن خارج الشاشة أم داخلها؟ هل نحن داخل الحياة أم خارجها؟ هذا السيناريو أُعد سلفاً ربما منذ أكثر من 10 سنوات. وسبق أن أعلن عن افتتاحه الصاخب في المنطقة كلها؛ والبدء بتنفيذه في المشهد العراقي... وبشّر مؤلفوه ومخرجوه المنطقة كلها بهذا المآل. أليست هي قصة موت معلن من جهتي، كان عليّ، أن أتوقّف عن الكتابة الآن للحظات، كي أنصت إلى صوت انفجار قذيفة، في مكان مجاور، قبل أن أستعيد، مرّة أخرى، صورة محمد ملص في مراياه المتعدّدة، كأن أقف عند سور مقبرة على تخوم قاسيون، وأنظر من عين العدسة إلى قبر عمر أميرلاي بوصفه أحد مشاهد الفيلم، وهو يخاطبه قائلاً "انكسر الخوف.. طوفان يا عمر طوفان"

وحشية كاملة

2013/5/16

سيجد عالم الاجتماع صعوبة لا توصف، في قراءة سوسيولوجيا المجتمع السوري، في المسافة الفاصلة، بين أول تظاهرة سلميّة، في منتصف آذار 2011، ومشهد أحد المسلحين ويدعى خالد الحمد" الملقّب "أبو صقّار"، من "كتيبة عمر الفاروق"، وهو يقضم قلب جندي ذبحه للتو، من دون محاكمة، ولكن مهلاً، ألم يقم شبّيحة النظام بقطع عنق مغني التظاهرات في مدينة حماة، إبراهيم القاشوش، ونزع حنجرته بعد قتله، ورمي جثته الممزّقة في نهر العاصي؟ إنها على أية حال، معادلة متكافئة في

صناعة الوحشية الكاملة، الوحشية التي تفوق الوصف، أو بربرية القرون الوسطى، وأمجاد الفولاذ في حقبته الأولى، حقبة شحذ السكاكين، وأنصال السيوف، وصيحة "الله أكبر

تاريخ دمشق يُباع قطعةً، قطعة

2013 /6/21

فوضى الحرب أتاحت للمهرّبين، واللصوص، نبش الكنوز الأثرية، ومبادلتها بالسلاح أو المال: 300 حفرة في عمليات تنقيب غير شرعية، بحثاً عن لقى أثرية في موقع دورا أوروبوس على ضفاف الفرات، و50 حفرة مماثلة في موقع مدينة ماري. يصوّر المهرّبون الكنوز المنهوبة من مدينة تدمر بالفيديو، قبل أن تغادر الشاحنة المكان.

الصور وثائق دامغة لإقناع تجّار الآثار بأن المحتويات المسروقة أصلية، وليست مزيّفة. تجّار أتراك وأردنيون ولبنانيون وعراقيون، يجمعون الكنوز النفيسة كي يبيعوها إلى مافيات الآثار، في إسرائيل، وأمريكا، وأوروبا، والأردن، ولبنان وتركيا، غير عابئين بقيمتها الأثرية. ألواح مسمارية، وأفاريز، وتماثيل رومانية، ونقود بيزنطية، أواني من العصر البرونزي، وفسيفساء من كنيسة القديس سمعان، وتماثيل صغيرة تعود لما يربو على ألفي عام من مدينة بصرى القديمة، مقابل بندقية كلاشينكوف، أو بندقية "أم 4"، أو عملة صعبة. ثلاثة أرباع المواقع الأثرية استبيحت في الحرب. المدينة

القديمة في حلب تحوّلت إلى خرائب، آثار بصرى معروضة للبيع، تدمير مئذنة الجامع الأموي في حلب، ألغى 1000 عام من التاريخ السوري. 35 متحفاً، وعشرة آلاف موقع أثري استباحها المسلحون، فيما نجت 77000 قطعة أثرية من النهب، بتخزينها في مستودعات المتحف الوطني في دمشق. في آفاميا، المدينة التي تعود إلى الحقبة السلجوقية، أُنتزعت 18 قطعة فسيفساء، تُشكّل بمجموعها ملحمة "الأوديسة" لهوميروس، بناء على طلب محدّد من إحدى مافيات الآثار.

اختفى تمثال الإلهة عشتار من متحف قلعة جعبر، على ضفاف الفرات، في أيار– 2012، بعد أن سطت جماعة من الكتائب المسلّحة على 17 ألف قطعة أثريّة، تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وكانت السلطات المحليّة قد نقلت 547 قطعة أثرية إلى مخزن البنك المركزي في مدينة الرقة لحمايتها من النهب. ما إن سقطت المدينة بأيدي الجهاديين، في نيسان، من هذا العام، حتى استولوا على البنك المركزي، ثمّ نُقلت محتوياته إلى مكانٍ مجهول. البيان الذي وزّعته الكتائب المسلحة، أفاد بأن جميع محتوياتٍ البنك وُضعت في "بيت مال المسلمين"

لا أحد يعلم اليوم ما هو مصير مئات القطع من النقود الذهبية الإسلامية، والرُقم المسمارية، ومجموعة الأختام والدمى والأقراط الذهبية. على الأرجح عبرت هذه الكنوز نحو تركيا التي تبعد عن حدود الرقة نحو تسعين كيلو متراً.

في ظلّ هذه الفوضى، لم يعد تهريب الآثار السورية سرّاً. في بيروت

يعرض أحد متاجر الشرقيات تمثالاً تدمريّاً، دون خشية من أحد، فلا أحد يتعقّب اليوم الآثار المسروقة، بما فيها منظمة اليونسكو، أو منظمة "سجل الفن المفقود" أكثر من ذلك، بإمكانك زيارة مواقع على شبكة الانترنت، تُعلن عن توّفر قطع أثرية مسروقة، إذ بإمكان المرء شراء قطعة عملة رومانية، أو لوح مسماري، أوفسيفساء، بضغطة زر واحدة.

غادر جهاد أبو سعود مدينة إدلب في الشمال السوري إلى الأردن، وقد أخفى بين حاجياته، رُقماً مسمارية مكتشفة في مدينة ايبلا، تحمل نقوشاً سومرية، وحين سُئل عن مهنته، أجاب "أنا مقاتل، أتحوّل إلى منقّب عن الآثار، في أوقاتٍ أخرى"

ويعترف محمد خليل، أحد تجار الآثار في عمّان: "نتلقى كل يوم مكالمات هاتفية ممن يريدون بيع ذهب وفسيفساء وتماثيل سورية. دمشق تباع هنا في عمان قطعة تلو الأخرى"

أما الجندي المنشقّ عن الجيش السوري، ويدعى "أبو ماجد"، فقد كان يقطع نحو تسعة أميال يومياً عبر الحدود الأردنية للتنقيب عن الآثار في الجنوب السوري، مجهّزاً بمجسات لاكتشاف المعادن. يقول وهو يرفع تمثالاً منحوتاً باليد، يعود تاريخه إلى ألفي عام: "ربما يرى الناس أننا لصوص، ولكنك قد تكون مضطراً للتضحية بالماضي من أجل إنقاذ المستقبل"!.

"لواء التوحيد" وجد ضالته في قلعة سمعان، إحدى أقدم القلاع الأثرية في شمال حلب، بأن حوّلها إلى ساحة للتدريب على القتال، وذلك باستهداف المنحوتات الحجرية الجنائزية بالأعيرة النارية، وجعلها نقاطاً

للقنص والتدريب، فتهاوت تماثيل تعود إلى القرن الثاني الميلادي، فيما تقوم ورشات المقالع بفك الحجارة الأثرية واستخدامها في البناء.

هناك أمل ضئيل باستعادة بعض الآثار المنهوبة، بعد أن أعلن جوليان آنفريونس، المدير العام للمجلس العالمي للمتاحف، رفع درجة الاستنفار والمباشرة بإعداد قائمة طوارئ حمراء للقطع الأثرية السورية المعرّضة للخطر، وهي أداة فعّالة تسمح بتعقّب القطع المهرّبة، كما تساعد في حماية التراث الثقافي في أنحاء العالم لأكثر من عشر سنوات، ووفقاً لمتخصّصين في الآثار، فإن هذا الإعلان يعكس جدّية المخاطر التي باتت تهدّد التراث الثقافي والتاريخي السوري الذي يعتبر جزءاً من التراث العالمي والإنساني.

ولكن، هل هناك من ينصت إلى نداء جوليان آنفريونس؟

خيام بدمغة زرقاء

2013/6/22

هاتاي، الزعتري، دوميز. جغرافيات جديدة للجوء السوري. نازحو الداخل لا عناوين لأماكنهم. هاربون من جحيم القصف إلى جحيم الطبيعة. صحراء وثلوج وطوفان. خيام الأمم المتحدة بالدمغة الزرقاء تخبئ حكايات جديدة عن العار. مخيّمات عزل قسرية، كما لو أن هؤلاء الفارين مرضى بالجذام، أو الطاعون، أو السّل. حياة معلّقة على أسلاك شائكة

بانتظار قوافل الإغاثة. عدسات المصورين تنتظر وصول انجلينا جولي لالتقاط أفضل صورة لها، وهي تحتضن طفلاً مجهولاً، أو امرأة مغتصبة، أو طفلةً فقدت عائلتها. مليون وربع مليون لاجئ، في أضخم تغريبة سورية تشهدها البلاد، عدا خمسة ملايين نازح في الداخل.

حكايات مخيّم الزعتري تتفوق على مثيلاتها. بازار مفتوح للأسى والخزي واللصوصية. أطفال في ظروف صحيّة سيئة، وآخرون ولدوا بلا أوراق ثبوتية، نساء للاتجار، قوّادون سرّيون لعقد صفقات مشبوهة بتزويج قاصرات من عجائز أثرياء قدموا من بلدان الخليج العربي، سرقة أموال الإغاثة، خيم للدعارة السريّة، حوادث اغتصاب، بازار للأرامل الجميلات، فتاوى رجال دين متطرفين تبيح اغتصاب النساء بوصفهن سبايا حرب. لا يحتاج زواج المخيّمات إلى أكثر من 150 دولاراً، هي كلفة تسجيل الزواج في المحكمة الشرعيّة، تحت بند "الستر شبكات الدعارة وجدت ضالتها في مخيمات اللجوء، إذ يتزوّج القواد أربع نساء، ثمّ يرسلهنَ إلى سوق المتعة. المرأة التي فقدت زوجها في الحرب، وجدت نفسها أمام عروض زواج متعدّدة: زواج عرفي، زواج مسيار، زواج متعة، معاشرة مقابل مواد إغاثة، أو تهديد بشطب اسمها من القائمة.

في كتابها "سوريا تهرب" تروي الصحافية الإيطالية لاورا تانغرليني مشاهداتها في مخيمات اللجوء عن هاربين من الجحيم السوري إلى لبنان والأردن، متسائلة "لماذا يتظاهر العالم بعدم رؤية ما يحدث هناك؟"

هناك حكايات أخرى ملطّخة بدماء الشرف، في مأساة غير مسبوقة

بمثل هذا العنف، يرويها ناجون من الموت. بعد أن تهنَ عن أهلهنَ، إثر هجوم الشبيحة على قرية متاخمة للحدود اللبنانية، ست شقيقات وجدنَ أنفسهنَ بين أنياب الوحوش البشرية، صغراهن عمرها تسع سنوات، اكتشفت أنها حامل، فاضطرت للخضوع إلى عملية إجهاض، فدخلت في حالة هستيرية من الرهاب. عائلة أخرى مؤلفة من ستة أفراد، اضطرت إلى الفرار من حمص إلى لبنان، بعد أن أُغتصبت الزوجة أمام زوجها وشقيقها.

بالقرب من الحدود السورية– الأردنية، سقطت امرأة حامل برصاصة في خاصرتها. كانت تركض بصحبة زوجها وطفلتها، حينما تلقّت الرصاصة، فسقطت خلف الأسلاك الشائكة مغشياً عليها. تسلل بعض الجنود الأردنيين، وأحضروها، ثمّ أسعفوها إلى المستشفى. يروي الزوج الذي أُصيب في أحدى قدميه، أنهم زحفوا ثلاثة كيلو مترات ليهربوا من الجحيم. امرأة من باب عمرو، خبأت ابنتها تحت السرير كي لا يراها المعتدون، ثمّ فرّت ليلاً بصحبة ابنتها، تاركةً زوجها وولديها، أحدهما مصاب في قدمه. المعتقل (ز. م) يروي حكايته وهو ينظر بأسى إلى يده المشوّهة "أُعتقلت خلال تظاهرة في درعا، وتعرّضت إلى مختلف صنوف التعذيب طيلة خمسة عشر يوماً، إلى أن فجّروا يدي. بدأت الحكاية بمنظر فتيان كانوا محتجزين في القبو نفسه، وهم يبكون خوفاً، ما أثار هذا المشهد غضبي، عندها أحضر أحد عناصر الأمن صورة للرئيس، ووضعها أمامي قائلاً "أسجد لربك"، لكنني لفرط غضبي مزّقت الصورة، فجن جنون المحقق. هكذا عصبوا عينيَّ، وفكوا قيدي، ثمّ صلبوني، وثبّتوا معدناً

بكف يدي، ثمّ سمعتُ انفجاراً. لم أشعر بالألم مباشرة، لكنني ما لبثت أن شعرت بسائل يقطر فوق قدميّ الحافيتين. كان دمي يسيل بغزارة، ففقدت الوعي. في المستشفى اكتشفت أنني فقدت ثلثي كف يدي اليمنى، ثمّ تمكنتُ من الهرب بمساعدة بعض أصدقائي إلى منطقة حدودية بين درعا، والرمثا، وبعدها تسللت إلى الأردن.

لا تختلف مكابدات (سعيد. ش) عن سواه من المعتقلين، فهو يستعيد وقائع تلك الليلة الشتائية السوداء، وكأنها حدثت للتو يمج سيجارته اللف بعمق، ثمّ يقول العجوز السبعيني، إثر سعال متقطع "حاصرتْ قوة أمنية القرية (الحراك/ درعا) من كل الجهات، ثمّ ساقونا مكبلي الأيدي ومعصوبي الأعين إلى جهة مجهولة، وهناك مكثت عشرين يوماً، تعرضت خلالها للتعذيب. سألني المحقق عن مشاركتي في التظاهرات، فأنكرت ذلك، ثمّ وعدني بالإفراج عني، في حال وافقت على تسجيل اعتراف مصوّر للتلفزيون الرسمي بأني سلّمت نفسي بعد أن قمت بإحراق مركز للأمن خلال إحدى التظاهرات، وحين رفضت، أمر المحقق بإحضار وعاء من الجمر المشتعل، وبدأ يضع بعض الجمر فوق قدميّ، ثمّ سألني بنشوة "ما رأيك الآن؟"

لم أجبه عن سؤاله، فأنا في الواقع، لم أحس بالألم لأنني مصاب بمرض السكري، لكنه حين أزاح العصبة عن عينيّ، اكتشفت أن الجمر التهم أصابع قدميّ. ظنّ الضابط أنني أعانده، فطلب إحضار إبريق من الماء المغلي وصبّه فوق قدميّ، ثمّ داس عليها، ودفعني إلى الخلف، فخرج إصبع قدمي من موقعه".

الحكاية لم تنته هنا، فبعد هذا التحقيق الذي استمر ساعات طويلة، من دون ماء أو طعام، أحضر أحدهم زجاجة ماء كبيرة، وطلب مني أن أشربها كاملة، وهذا ما فعلته بالضبط، ثمّ طلبت أن أذهب إلى الحمّام. خلعوا ملابسي، وربطوا خيطاً من المطاط فوق قضيبي، ثمّ أدخلوني الحمام، وقد كبّلوا يديّ وراء ظهري، لحظتها أحسستُ بألم شديد، وبأن أحشائي ستنفجر، و لم استطع الاحتمال، وصرختُ بأنني مُوافق على أي اعتراف تطلبونه"

هذه المرّة، الأمر يتعلّق بإشعال شمعة: "هل تعرف كيف ذهب دانتي إلى الجحيم وسمح له بالعودة؟ كانت مساحة تلك الزنزانة عشرة أمتار مربعة وفيها 152 شخصاً، تقع في طبقتين تحت الأرض. الهواء خفيف جداً، وتشعر بالاختناق على الدوام. كان لديهم نظام غير معلن: في الأسبوع الأول، تقف طوال النهار وطوال الليل، ثمّ تتمكن من الاستناد تجاه الحائط لعدّة أيام ثمّ يسمح لك بالجلوس. حين تقف، تخشى أن تغفو لأنك حينها قد لا تستيقظ قط. لم يقض البعض إلا ساعات هناك والبعض الآخر أياماً وأسابيع، أمّا آخرون فقد تعرضوا للتعذيب بأساليب لم أكن أتخيلها" يتوقف (أمير. ج) للحظات، مستعيداً تلك الساعات الجحيمية في المعتقل، ثمّ يقول "تحصل على نحو 30 ثانية في اليوم لتستعمل المرحاض، ولكن ثق بي، ذلك لا يقلقك حتى، كان ثمّة أناس هناك يطلبون الموت"، ولكن ما سبب اعتقالك على وجه التحديد؟ يجيب "لقد أضأت شمعةً في مسيرة صامتة لذكرى جنازة".

الرقيب الخالد

2013/6/24

التحق زياد كلثوم بالخدمة العسكرية، قبل هبوب الاحتجاجات بقليل. بعد دورة تدريبية خشنة، كان عليه أن يذهب إلى موقع عسكري في المليحة بالقرب من دمشق، في عمل إداري، وبوصفه سينمائياً، أشرف على صالة السينما في الموقع. في هذه الأثناء، كان يعود من الخدمة إلى موقع تصوير فيلم محمد ملص "سُلّم إلى دمشق" للعمل مساعداً للإخراج. كان يجري تصوير هذا العمل بسريّة تامة، في بيت عربي قديم، في حي ساروجة، وكان زياد كلثوم قد أنجز بعض اللقطات من كواليس الفيلم بكاميرته الخاصة. لقطات لوجوه بعض ممن يعمل في الفيلم، وقد أتوا للتو، من الضواحي الملتهبة، يروون حكاياتهم تحت القصف، وكيف يرممون حياتهم، في ظل الخوف.

خلال دوامه في الموقع العسكري، كان زياد كلثوم يختلس عبر هاتفه المحمول، لقطات من المكان، صالة السينما الفارغة، الشعارات الحماسية المكتوبة على الجدران، غرفة المكتب، ساحة الاجتماع الصباحي. باشتداد حدّة المعارك في المليحة، ازداد الخطر في المكان، فقررت القيادة العسكرية، أن تسلّم الرقباء الإداريين أسلحة. وضع الرقيب زياد كلثوم بندقيته الكلاشينكوف على طاولة المكتب أمامه، وجهّز كاميرا هاتفه المحمول لالتقاط آخر صورة في هذا المكان، ثمّ ألقى بيانه الشخصي، معلناً الانشقاق عن الجيش النظامي، وأضاف "والجيش الحرّ"، ثمّ أبرز

هويته العسكرية، على غرار ما يفعله الآخرون، بنطق عبارة "وهذه هويتي"، وخرج من المكان. بعد أيام، عمّمت الجهات الأمنية اسمه على كافة الحواجز، ونقاط الحدود. الرقيب الفار، اختبأ في مكان آمن، نحو ثلاثة أسابيع، إلى أن تمكّن من اجتياز الحدود ببطاقة هوية لأحد أصدقائه. عند نقطة الحدود السورية – اللبنانية، شكّ عسكري الهجرة والجوازات بأمره، لدى معاينة الشبه بين الصورة الملصقة على البطاقة وحاملها، لكن الرقيب الفار، أقنعه بأن الفروقات الطفيفة طبيعية بسبب قدم حصوله على البطاقة، وما يفعله الزمن بملامح الوجه. بعد تردّد، ونظرة مرتابة، ختم العسكري بطاقة الخروج، والتفت بضجر إلى شخصٍ آخر

في بيروت جمع زياد كلثوم المواد التي صوّرها، وقرر توليف فيلم منها، يروي خلاله تجربته القاسية خلال سنتين ونصف السنة في الخدمة العسكرية، فكان أن حصل على سبعين دقيقة مصوّرة. أمام جهاز المونتاج، استعرض ما أنجزه، ووجد عنوان شريطه، من دون جهد يُذكر، ثمّ كتب باطمئنان "الرقيب الخالد" تيمّناً بأكثر العبارات رسوخاً في ذاكرته، داخل المعسكر "القائد الخالد"، العبارة التي كانت تملأ الجدران هناك.

أنموذج قائمة مطلوبين

2013/6/25

بتاريخ (14 نيسان/ 2013) عمّمت الجهات الأمنية على الحواجز والنقاط الحدودية، قائمة بأسماء المطلوبين للاعتقال، كانت القائمة تضم

600 اسم، يقيم أصحابها في دمشق وريفها. تمكّن أحد الناشطين من تهريب القائمة، ونشرها على موقع الكتروني بقصد أخذ الحيطة والحذر. لن ننشر الأسماء كاملة هنا، عدا عيّنات منها، خصوصاً، تلك المرفقة بملاحظات تسهم بسهولة معرفة هؤلاء الأشخاص ونوعية الجرائم التي ارتكبوها (حسام علي البيك، يعمل في بقالية، جانب ملحمة الطبل – الغواص، حسان احمد قداح – درعا – مقيم في بستان الدور، مصطفى صطوف، بستان الدور، محاسب أسلحة في الأمن الجنائي، الصفر، لحيته وشاربه خفيفان –قبر عاتكة – جانب جامع الذهبية – متظاهر وأعمال شغب، أمين الزين يعمل في صالون الزّين للحلاقة، جانب جامع البريدي، أصله مغربي – مسلّح، أحمد السروجي، أصله من حماه، مقيم في التيامنة، ساحة حوا – مسلّح، ملقب أبو عبدو، أحمد السلاخ – التيامنة – قصير أسمر له لحية، أحمد جنيد – السويقة – التيامنة – متظاهر ومخرّب، أحمد محمد معري، مقيم بالقرب من مقبرة باب الصغير – موظف في شركة النقل الداخلي– مسلّح، أحمد هيثم سروجي – سنجق دار، من المحتمل أنه مسلّح، باسل النابلسي – التيامنة – تظاهر، ماهر العكوري – السويقة – دخلة التيامنة، خلف مخبز التيامنة – يؤجّر دراجات نارية للمسلحين، محمد أبو سليم مصري – يسكن في السويقة، بالقرب من جامع النقشبندي، التعامل مع الإرهابيين، وليد عمر، 27 سنة، طويل ممتلئ، أبيض البشرة، عيناه سوداوان، شعره أشقر، يحلق على الصفر، وليد محمد بردان، منزله بجانب تربة الدقاق– محرّض، أبو تيم طوله 180 سم، أشقر، نحيل، لحية خفيفة، يسكن بالقرب من تربة الدقاق– متظاهر).

لا أعلم مصائر أصحاب هذه الأسماء، على الأرجح إنهم مختفون، أو أن الحظ العاثر لأحدهم، أوقعه في المصيدة، وربما غادر بعضهم حدود البلاد خفيّة. في الواقع، لا توجد إحصاءات دقيقة عن عدد المطلوبين، أو المعتقلين، أو المفقودين، فالبلاد مرتهنة للفوضى، والقتل المجاني، والخطف، والمقاولات على كل ما يصلح للبيع، كأن تمنح بيوت شارع كامل بعد تطهيره من المسلحين لأحد المقاولين مقابل مبلغ محدّد، أو أنّ تخطف عصابة ما، أحد الأثرياء، ثمّ تطلب فدية، أو أن تقبض على امرأة تعبر الشارع ثمّ تغتصبها بوصفها غنيمة حرب. يكفي أن تسبق الآخرين إلى الغنيمة بصيحة "الله أكبر حتى تصبح لك شرعاً، والأمر نفسه يحصل بخصوص سيارة رباعية الدفع.

اكتب بالمسمار على الحائط

2013/6/28

"إذا كنت تريد أن تكتب على الحائط، هنالك مسمار تحت "الكرتونة" في الزاوية اليمنى، أعدهُ إلى مكانه بعد الانتهاء من الكتابة"

هذه الملاحظة مكتوبة على حائط غرفة التوقيف، في فرع "أمن الدولة"، أحد أكثر مراكز الأمن قسوة في تعذيب المعتقلين. الشاب الكردي الذي تمّ توقيفه في هذا الفرع، وقرأ هذه الملاحظة، لم يكتب شيئاً، طوال ثلاثة وثلاثين يوماً، هي مدة توقيفه، لكنه ما أن خرج من هذا المكان المخيف،

حتى استعاد كيانه المحطّم، وبدلاً من أن يكتب هذا الشاب الكردي ذكرى عابرة على هذا الحائط، أنجزَ كتاباً كاملاً عن هذه التجربة، ثم فرّ من البلاد.

كعب أخيل

2013/6/28

الأشرطة التي يبثها ناشطون على اليوتيوب بخصوص حالات تعذيب، غير قابلة للاحتمال البشري. بربرية كاملة من أزمنة ما قبل الصورة.

كنتُ أؤجل منذ أشهر، مشاهدة الصور الحيّة التي يبثها ناشطون على موقع "يوتيوب" عن الموت. بدقّة أكبر عن الذبح. أن تكبّل رجلاً، وتجزّ رأسه بسكين بتهمة الكفر أو الإلحاد. مشاهد من هذا القبيل، ليست نادرة أو استثنائية، على العكس تماماً، إذ يرفقها أصحابها برسائل معلنة عمّا يودون تعميمه على الآخرين. المحاكمات التي تقوم بها الهيئات الشرعية، لا تحتاج إلى حيثيات كبرى، فالمهم تصدير الخوف إلى الآخر، لترسيخ سطوتها على المكان والبشر والهواء. ساحة في وسط مدينة، ومتهمون معصوبو الأعين، وملثّمون. المتفرجون يوثقون لحظة النحر بهواتفهم المحمولة، فهم غير معنيين بما يحدث بقدر اهتمامهم بزاوية التصوير، ووضوح المشهد، والقدرة على التأثير، من دون إشارة على الندم. على الضفة المقابلة، يسرّب أحدهم شريطاً عن تعذيب معتقلين، أو مذبحة في قرية بعيدة، أو حالة إعدام ميداني لمقاتل، كنوع من الدروس

المجانية لتجنّب ما يحدث لهؤلاء الضحايا، أو تحميل وزر هؤلاء الضحايا لجهة العدو المتخيّل. هناك أنماط أخرى من الصور يتم تصنيعها في "غرفة العمليات" بقصد تصديرها للآخر.

صور مزيّفة، سوف تدخل الأرشيف مباشرة بوصفها وثائق دامغة، بنظام بصري، أقرب ما يكون إلى نظام الاغتصاب، وسوف يجري تداولها بتكرار بقصد إحداث الصدمة المطلوبة، ثمّ تعود إلى الأرشيف المنسي، ما أن تبزغ صورة جديدة أخرى على الشاشة. لكل صورة، كما يقال "كعب أخيل" يفضح هشاشة أصالتها، ونواياها، وقدرتها على الصمود، بصرياً وسلعياً وبنيوياً. لا تحتاج معظم الصور المبثوثة إلى تفكيك منظومتها البصرية، ذلك أن التراكم الكمّي المتواتر، يقوم بمهمة المحو، كما يحدث في ماكينة للفرم. صورة تلغي الأخرى بتلاشي اللذة، أو انتهاء صلاحية السلعة. خارج أرشيف اليوتيوب، يسعى آخرون إلى تسجيل لحظة فوتوغرافية خاصّة بأرشيفهم الشخصي، كأن يقطع أحدهم مئات الأميال، مجتازاً الحدود التركية – السورية، كي يلتقط صورة مع الثوّار، في "المناطق المحرّرة"، ثمّ يعود على الفور، بمخزون بصري، يجري تعميمه على مواقع التواصل الاجتماعي. عملية ناجحة، من دون خسائر تُذكر، تضع صاحبها في خانة الأبطال، مقابل 500 دولار، يحصل عليها الإدلاء الجبليون، لحظة التقاط الصورة. هناك مهنة أخرى رائجة، كأن تصوّر تظاهرة مدفوعة الأجر، بزقاق مظلم، في أحد الأحياء البعيدة، كي تبيعها إلى محطة تلفزيونية. بالطبع، فإن هذا النوع من الأشرطة، يحتاج إلى مواصفات محدّدة، يجري الاتفاق عليها مسبّقاً، مثل نوعية الهتافات،

والشعارات، وحجم الحشود. مهنة "شاهد عيان" أفرزتها حروب الربيع العربي في البلدان الملتهبة، لتعلن نهاية زمن المصوّرين المحترفين. فعدسة الهاتف المحمول، هي إستراتيجية الردع الجديدة، بصرف النظر عن صلاحية الصورة، أو قدرتها على الإقناع، فالمهم هنا، مزج الحقيقة والمعنى في إطارٍ واحد، وتحقيق الإغراء الحسّي المطلوب، "فالأشياء لا تحدث إذا كانت غير مرئية"، كما يقول جان بورديار. زخم المرئي المزيّف، يتفوّق على الحقائق، في "ماكينة الإبصار

في القريب العاجل، سيجد المؤرخ الرصين نفسه، عاطلاً من العمل، بسبب تضارب المعلومات، وغياب المرجعيات المؤكدة وتزييف الوقائع. صورة الكاهن المذبوح فرانسوا مراد قرب مدينة حمص، تفوق الوصف، إذ لم يكتف المسلحون الملثمّون بنهب الكنيسة وتخريبها، إنما قطعوا رأس الكاهن، ثمّ صوروا المشهد بدم بارد. أما الأب فادي حدّاد الذي كان يخدم كنيسة مار الياس للروم الأرثوذكس في ريف دمشق، فقد بدأت حكايته بالمقلوب، فهو عمل وسيطاً لاستعادة طبيب احتجزه خاطفون، مقابل فديّة، وعندما ذهب بصحبة والد زوجة الطبيب المخطوف لتسليم المبلغ المطلوب، خطف الرجلان، فارتفعت قيمة الفديّة إلى ثلاثة أضعاف، وبعد أيام عُثر على جثته قرب طريق عام في ضواحي دمشق. هناك نحو مليوني فيديو توثّق حالات إعدام فردية، وأخرى جماعية، بالإضافة إلى حالات تعذيب. كان الجنود خلال حفلات التعذيب يصوّرون أنفسهم، من باب التسليّة، ويقومون بنشر هذه الفيديوهات كنوع من المجد الشخصي.

في التقرير السنوي الحادي عشر لحالة حقوق الإنسان في سورية 2013، التقرير الذي يُصنف باعتباره واحداً من أسوأ وأخطر حالات انتهاك حقوق الإنسان على مستوى العالم، سنقع على 1077 حالة وفاة تحت التعذيب، و1570 حالة خطف واغتصاب.

يورد التقرير نفسه حادثة مستلّة من جحيم حي بابا عمرو في حمص، ففي صبيحة 26 شباط – 2012، نزح آلاف الأهالي من الحي، خوفاً من موت محقق، إذ لم يتوقّف القصف لحظةً واحدة. عاثرو الحظ الذين وصلوا حاجزاً أمنيّاً، على الطريق الدولي، استمعوا إلى نصيحة الضابط بالصعود إلى الحافلات بقصد إيصالهم إلى مناطق آمنة. انطلقت أربع حافلات مزدحمة بالركاب، وبعد مئات الأمتار من الحاجز، أمر مرافقو الحافلات الشيوخ بالنزول، ثمّ بدأت مذبحة ميدانية، كانت حصيلتها 64 شاباً، فيما خُطفت النساء إلى مكان مجهول. بعد أيام، وُجدت 47 جثة قرب مدجنة، و11 جثة أخرى، عند أسوار أحد السدود، ثمّ سُلّمت الجثث إلى المستشفى الوطني في حمص، وحسب أقوال الشهود، كانت آثار الذبح واضحة على هذه الجثث.

جنّة البرابرة

2013 /7/1

ولكن، كيف لي أن أفسّر هذه الرائحة؟ رائحة حرّيفة تهبُّ من كل الجهات يصعب تصنيفها بدقّة، أخرج إلى الشرفة، ألمسُ بأصابعي نبتة

الحبق الذابلة، أشمُّ الرائحة بعمق. ليست الرائحة نفسها، هناك ما طرأ عليها، على الأرجح، إنها رائحة بارود، وجثث متفحّمة، وغازات، ومخلّفات قمامة، ونواح حزانى، وشهقات ضحايا، وبكاء مكتوم. هل هذه "دومسكس وفقاً لاسمها اللاتيني القديم "المسك" حقاً؟ وماذا سيكتب ياقوت الحموي، في ما لو أعاد كتابة "معجم البلدان"، ألن يتردّد في قوله "وجملة الأمر أنه ما وصفت الجنّة بشيء إلا وفي دمشق مثله"؟ وبماذا سوف يردّ ابن جبير في ما لو زارها اليوم، هل سيكتب بالطمأنينة نفسها "وأما دمشق فهي جنّة المشرق، ومطلع نورها المشرق، وخاتمة بلاد الإسلام متى استقريناها، وعروس المدن التي اجتلبناها. قد تحلّت بأزاهير الرياحين وتجلّت في حللٍ سندسية من البساتين، وحلّت موضع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصتها أجمل تزيين"

دمشق اليوم، هي جنَّة البرابرة، والأرض الخراب، ومنجم الألم. تحت جذور أشجار المشمش والتفاح والجوز، في الغوطة، ستجد أنفاقاً للمسلحين، ومخازن للذخيرة، والرايات السود، وستشمّ رائحة غاز السارين بدلاً من رائحة أزهار الكرز، وحين تعبر شارعاً في جوبر، أو داريا، أو المعضمية، لن تلتفت إلى الجثث المهملة منذ أيام، فالقنّاص، سيمنعك من الاقتراب، ستمضي، وكأنك لم ترَ ما يلفت النظر، وعند الحاجز، ستتفقّد بطاقة هويتك، خوفاً من أن تكون قد أضعتها. وسوف تنظر من نافذة السيارة إلى البيوت المهدّمة، من دون أن تتساءل عن مصائر أصحابها، هل هم مهجرون أم قتلى أم معتقلون، أم لاجئون وراء الحدود؟ البيوت التي نهبت، وتحوّلت جدرانها الداخلية التي كانت مكاناً للصور العائلية

واللوحات والمرايا إلى مجرد كوّات مفتوحة، كوّة تقود إلى كوة مفتوحة على بيت آخر، ثمّ بيت آخر، مثل بيت الخلد. كوة في جدار تكفي المسلح بأن يضع بندقيته على الحافة كي يصطاد عدوه المفترض بأفضل الوضعيات تحكّماً. كُنت شاهدت هذا الصباح شريطاً وثائقياً عن الحرب في كوسوفو، وإذا بالمشهد نفسه يتكرّر: مسلح يطلق النار من كوّة مفتوحة في جدار، بفارق بسيط، فقد كان هذا الشريط مصوّراً بالأبيض والأسود، فيما نحن نعيش الحرب بالألوان، ربما كي نرى لون الدم بالأحمر، في الشوارع، وعلى الشاشات بآن واحد.

ولكن بماذا يفكّر من هُجِّر من بيته، تحت وابل القذائف، والبراميل المتفجّرة، أو تهديد المسلحين؟ النزوح منفى مؤقت حتى لو كان هذا المنفى يقع في داخل البلاد، المنفى الداخلي هوية لا تشبه صاحبها، وسفينة مثقوبة، تتأرجح فوق المياه العميقة، وجسد منتهك بكدمات الفقدان، وذاكرة مشحونة بمفردات المكان الأصلي.

اضطرت (ميسون.ش) إلى مغادرة بيتها في حي القدم، أثناء محاصرة الجيش للحيّ بقصد مطاردة المسلحين، وحين عادت إلى الحي، بعد "تطهيره من المسلحين"، لتفقّد بيتها وجدته فارغاً، فقرّرت أن تسأل جيرانها عمّا حصل في غيابها. قرعت باب الجيران، وبعد انتظار طويل فتحت جارتها الباب "ارتبكتْ قليلاً، حينما رأتني. كانت تنتعل في قدميها الحذاء المنزلي خاصتي. الحذاء الذي على هيئة أرنب، ومن فتحة الباب الموارب، لمحتُ فرن الميكروويف الذي كنت ابتعته بالتقسيط،

والكنبة الزرقاء بزهور بنفسجية. أحسستُ بالاقتلاع، وكأنني معلّقة في فراغ أبدي. فهمت بأنه عليّ أن أغادر المكان، فلم أعد بحاجة إلى سؤالها عمّا حدث. لحظتها أدركتُ معنى عبارة "الجيش الحرّ مرَّ من هنا" المكتوبة على حائط بيتي، ومعنى أن انتمي إلى طائفة أخرى مطلوب إبادتها.

بلاغات في التحريم والتكفير والمتعة الحلال

2013 /7/2

"يحرّم خروج المرأة المسلمة متبرّجة بالألبسة الضيّقة التي تُظهر منها معالم الأبدان، أو مزيّنة بأصباغ على وجهها، فعلى جميع الأخوات الالتزام بطاعة الله والتمسّك بآداب الإسلام، والله من وراء القصد"

ليس هذا البلاغ الأول في نوعه الذي تصدره "الهيئة الشرعية في حلب"، فقد سبق وأصدرت الهيئة التي وضعت نفسها بديلاً للقضاء الرسمي، بلاغات مشابهة في التحريم والتكفير، ولكن، أقول لنفسي، هل يعقل أن نتبادل الجغرافيا؟ كأن نضع قندهار فوق خريطة حلب؟ وهل هؤلاء عبروا الحدود كي يخوضوا حرباً من أجل الحريّة أم لأجل حوريات الجنّة وغنائم الدنيا؟ الحرب المقدسة على سراويل الجينز، ليست طارئة، ففتاوى الفقهاء وخطباء الجوامع، لم تتوقّف يوماً عن الهجاء في هذا الباب. في التاكسي كان السائق يعاقبني بفتاوى شبيهة عبر كاسيتات تُباع بآلاف النسخ، إذ أهدر هؤلاء المشايخ وقتاً أطول في شرح وتشريح جسد

المرأة، وقياس حجم المؤخرات المكتنزة بالسراويل الضيّقة، ضاربين عرض الحائط بالآية القرآنية "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم"

على بعد أميال، كانت حافلة سياحية، تقطع الطريق الصحراوي من مدينة الرقة إلى دمشق. في محطة الاستراحة الأولى، وقبل أن تنطلق الحافلة مجدّداً، طلب السائق من سيّدة وابنتها ذات الثلاثة عشر عاماً، كانتا تجلسان في المقعد الأمامي بأن تغطيا رأسيهما، وحين احتجت السيّدة، أوقف السائق محرّك الحافلة، قائلاً "لا أظن أن مثل هذا الاحتجاج سوف يقنع رجال جبهة النصرة في الحاجز الذي سنجتازه بعد دقائق من هنا"

غادرت السيدة مقعدها مرغمةً، واتجهت إلى الاستراحة. ابتاعت غطاء رأس مشجّراً، من الحرير، وآخر لابنتها، ثمّ عادت إلى الحافلة. ارتدتا الهباري البدوية بارتباك لإخفاء شعرهما المكشوف، ثمّ انطلقت الحافلة مرّة أخرى، بعد أن استل السائق من صندوق أمامه، اسطوانة مدمجة تحتوي آيات قرآنية بصوت مرتّل مجهول، بدلاً من الاسطوانة التي كانت تصدح بعتابا فراتية للمغني صلاح هليّل. عند الحاجز، اصطاد أحد رجال الدورية، أستاذاً جامعياً يدرّس الفلسفة، كان يربط شعره الطويل على هيئة ذيل حصان، إذ اعتبره يتشبّه بالنساء، ويستحق الجلد، لكن أحداً من ركاب الحافلة، لم يعد يعلم ما هو مصيره اللاحق، وهل اكتفت الدورية بجلده، أم ابتلعته هوام الصحراء، في هذه الطريق الموحشة؟ حرب على كل الجبهات، خاضها هؤلاء التكفيريون، فبعد تحطيم التماثيل، وتشويه بعضها الآخر لكسر مهابتها، توجهوا إلى محاربة أجساد النس بفتاوى تدعو إلى ارتداء النقاب، النسخة

الموازية للبرقع في أفغانستان، والشادور في إيران، فيما أطلق أحد المشايخ فتوى "جهاد النكاح" كآخر طبعة للإسلام الجهادي. في المشهد المقابل سنجد المصرية علياء المهدي تبث صورها العارية في مدوّنتها الشخصية، غير عابئة بالحملات الضارية ضدها، إذ تكتب "انظروا إلى أنفسكم في المرآة، واحرقوا أجسادكم التي تحتقرونها، لتتخلصوا من عقدكم الجنسية إلى الأبد، قبل أن تنكروا حريتي في التعبير"، وتعاضدها الناشطة التونسية في منظمة فيمن النسائية العالمية، أمينة تيلر بالظهور العلني في الشارع، عارية الصدر، وقد زيّنته بعبارة "جسدي ملكي أما هنا، في هذه الجغرافيا الخائفة والزلقة والكابوسية، الجغرافيا المهدَّدة بحروب الهوية، كان على (نيرمين ع) أن تقف أمام مرآتها كل صباح، كي تجرّب الطريقة المثلى لارتداء الحجاب، للتخلّص من النظرات الساخطة لركاب الميكروباص، لحظة صعودها من موقف ضاحية قدسيا إلى مكان عملها في ساحة الجمارك، بمعطف طويل يغطي سروال جينز وتي شيرت ملوّن.

في المبنى الزجاجي الضخم، كانت نيرمين التي تعمل محرّرة في إحدى المواقع الالكترونية، تتصفح كل يوم مئات المواقع المتخصصة بأزياء المرأة، لتختار صوراً موحية للموضة الدارجة لهذا الموسم، أحذية بكعب عال، وتنانير جينز قصيرة، وقمصان مكشوفة الظهر، وإكسسوارات ملوّنة، ومايوهات سباحة، ومساحيق تجميل، وصور تاتو على هيئة عنكبوت، أو فراشة، أو وردة، على الكتف، أو على الذراع، أو فوق السرّة. كانت طوال ساعات الدوام، التي تبدأ من التاسعة صباحاً وحتى الخامسة بعد الظهر، تتحاشى أن تنظر إلى ألواح الزجاج كي لا ترى صورتها بالحجاب معكوسة

في الجهة المقابلة لها. تتوقّف أمام صورة بالأبيض والأسود لتظاهرة نساء سوريات خلال عشرينيات القرن المنصرم، منشورة في مجلة "العروس" التي كانت تصدرها حينذاك ماري عجمي. تقيس المسافة بين ذلك الزمن السعيد، وما آلت إليه أحوال النساء اليوم، خصوصاً، بعد هذيان الفتاوى السلفية التي تجيز جهاد النكاح، وسبي النساء، ومعاشرة الزوجة بعد موتها.

في أوقات الفراغ، كانت نيرمين تفتّش، في مواقع متخصّصة بقضايا النساء السوريات، عن علياء مهدي أخرى، من دمشق أو حمص أو اللاذقية، كنوع من التعويض عن خسائرها الشخصية، لكنها، لم تجدها، على العكس تماماً، فقد كانت حكايات السبي، وزواج القاصرات في مخيمات اللجوء، وفتاوى طلب المتعة تتفوّق على ما عداها، وتبيّن لديها بأن ما يحدث ليس مجرد حالات فرديّة، إنما هناك آلاف الضحايا لقوادين وسماسرة ومشايخ يعلنون عن بضائعهم أمام الجوامع، وداخل مخيمات اللجوء، وفي القرى المنكوبة، مقابل مهور بخسة، تتناسب مع المتعة المؤقتة التي تتراوح بين شهر وساعات.

في موقع "الفيس بوك" وجدتْ نيرمين ضالتها خلال تجوّالها في الصفحة الشخصية لممثلة سورية اقتحمت الفضاء الافتراضي أخيراً، اسمها نهاد علاء الدين، والمعروفة باسم "إغراء" وضعت الممثلة المحتجبة صوراً شبه عارية من أفلامها القديمة، ومقابلات كانت أُجريت معها، ومما لفت انتباهها، إجابة الممثلة عن سؤال يتعلّق بظهورها عارية تماماً في مشهد من فيلم "الفهد" مع المخرج نبيل المالح، في خريف عام 1972 "أثناء تصوير

المشهد، شعرت بأنني انتحارية تفجّر في نفسها لغماً، وقلت لنفسي: لا بأس فليكن جسدي جسراً تعبر عليه السينما السورية، وأنا لست آسفة ولا نادمة على ما أقدمت عليه ولا يتوقع أحد مني أن أتقدّم بعريضة ألتمس فيها حكماً بالبراءة الشخصية وشهادة حسن سلوك"

لم أتعرّف على نيرمين لحظة دخولها مقهى الروضة. كانت تتجه نحوي بابتسامة مرتبكة، وخطوات متعثّرة، فهذه هي المرّة الأولى التي أراها بعد أن ارتدت الحجاب. أشعلتْ سيجارة فور جلوسها، وطلبت فنجان قهوة، من دون سكّر، وروت لي بأنها اضطرت إلى ارتداء الحجاب كي تحمي نفسها من القتل على الهويّة، في فوضى الفرز الطائفي، ونظرات الازدراء التي كان يواجهها بها جيرانها في الحيّ الذي يضم خليطاً من الطوائف، وكيف أصبح بائع المخدرات سابقاً، شيخ طريقة في صناعة الفضيلة. كانت تدخن السجائر بشراهة، خلال هذيانها بحكايات مشتّتة عن حياتها، وتورطها بإنجاب طفلة من رجل لا تحبه، وعن جنازة الشاب الذي قُتل بالأمس في الحارة، بسبب حادثة ثأر قديم، وتحويل الجنازة إلى تظاهرة ضد النظام، وهتافات في توديع الشهيد واتهام السلطة بقتله. فجأة سألتني "هل تعرف دانا بقدونس؟" قبل أن أهز رأسي بالإيجاب، فردّت صورتها أمامي على شاشة هاتفها المحمول. الصورة نفسها التي تداولتها بعض المواقع الالكترونية المعارضة للسلطة. فتاة بشعر قصير وقميص بلا أكمام، وهي تحمل بطاقتها الشخصية، مرفقة بلافتة. كانت الصورة الملصقة بالبطاقة لفتاة محجّبة، فيما كُتب على اللافتة بالعربية والانجليزية "كنتُ محرومة لمدة 20 سنة، من أن يلامس الهواء جسدي وشعري" حاولتُ أن أوضّح لها

بأنني أعرف حكاية دانا بقدونس، ولكنني لا أعرفها شخصياً. قلت: هي صديقة لي على الفيس بوك، وقد اعتقلها الأمن بعد تظاهرة جامع الحسن، ثمّ أفرج عنها. ولكن نيرمين أكملت بأسى، من دون أن تنصت إلى ما قلته "أما أنا فحكايتي معكوسة. فبعد 27 سنة من حرية جسدي وشعري، ها أنا أعيدهما إلى الحرمان من ملامسة الهواء"

كنتُ أنظرُ إليها بصمت، أفردُ شعرها الأسود الفاحم المدفون تحت طبقات الحجاب، واستعيد عنقها المخبوء، والشامة المحاذية لأذنها اليمنى، وساقية صدرها التي دثّرتها بكنزة صوف محتشمة. بعد أن تناولت فنجانين من القهوة، وسيلان كحل عينيها، أثر نوبة بكاء مكتومة، طلبت مني مرافقتها لشراء حجاب جديد. أمام واجهة أحد متاجر الألبسة المخصّصة للمحجّبات فقط، في شارع الجسر الأبيض. كانت نيرمين تفتّش عن شال ملوّن يتواءم مع سروال الجينز الذي غابت ملامحه تحت المعطف الطويل، وكنتُ أفتّش عن صورة نيرمين القديمة ورائحة أنفاسها، وحرارة أصابع يدها، ونحن نمضي في الطريق إلى جسر الرئيس، بشهوانية مضاعفة، قبل أن يبتلعها زحام ميكرو باصات ضاحية قدسيّا. صورتها الجانبية من وراء زجاج نافذة الميكروباص، كانت آخر عهدي بها، إذ منذ ذلك الشتاء، لم يرنّ هاتفها النقّال مرّة واحدة. الرقم المطلوب خارج الخدمة، كانت هذه العبارة، هي الإجابة الوحيدة التي تربطني بها، قبل أن تختفي تماماً.

بلاد لم تعد موجودة إلا في مصوّرات "غوغل إيرث"

2013/7/16

(بلاد لم تعد موجودة إلا في مصوّرات "غوغل إيرث").

عبارة وردت في رسالة الكترونية وصلتني من أحد الأصدقاء الهاربين إلى بلد مجاور. كان (سليم. ع) يستعرض خريطة البلاد يومياً. يوقف المؤشر عند "الحولة"، البلدة التي شهدت مذبحة غامضة، تبادل الطرفان فيها الاتهامات، إلى أن حدثت مذبحة أخرى، أطاحت ما سبقها من مذابح. يستعيد (سليم. ع) شارع بيته، وكأن ما حدث من دمار مجرد كابوس، محاولاً استعادة نباتات الشرفة، وشجرة كينا ضخمة تزيّن مدخل سور البناية، وصوت بائع أسطوانات الغاز، وحبل غسيل الجيران، وعشرات الوجوه التي ذهبت في المذبحة، قبل أن يوسّع العدسة باتجاه تضاريس أخرى في البلاد صبغها لون الدم. ولكن أليست هذه البلاد منذورة للدم المؤجل؟ يجيب سليم في رسالة أخرى "كان تحسين شروط العبودية، بين حقبة وأخرى، هو ما يؤجل دفع ثمن هذه الفاتورة، أليس هذا ما أخبرتني به، في رسالة سابقة؟"، ثمّ يستدرك "هناك الخوف المزمن أيضاً"

الخوف؟ هذا ما كنتُ أنوي تأجيله، ولكن اسمع وقائع ما جرى لي، خلال زيارتي الأخيرة إلى بيروت:

في فندق "لو مارلي في بيروت، كنت أرتّبُ الكتب الممنوعة في حقيبتي، بطرق غامضة بقصد تمريرها بسلام أثناء عملية التفتيش على

الحدود، في طريق العودة إلى دمشق، كأن أضع كتاباً بين طبقات الألبسة الداخلية والجوارب والقمصان، أو في جيب داخلي، ثمّ أعيد توزيعها مجدّداً، بأن أضع الكتاب اللعنة بين خمس روايات لا تثير الشبهات، ففي الأشهر الأولى للانتفاضة، ظهرت عشرات العناوين حول آلية السلطة في سورية، من طريق مراكز أبحاث أكاديمية في أمريكا. ما أن اطمئنَ إلى طريقة بوليسية حاذقة في الإخفاء، حتى يعاودني الهلع، فانهض مجدّداً. استحضر خطة بديلة بأن أخفي الكتاب الممنوع في الطبقة السفلى من الحقيبة، رافعاً الطبقة الرقيقة من الورق المقوّى فوق مجموعة من الكتب، ثمّ ابدأ بترتيب الثياب، كما اتفق. في رحلة سابقة، كنت أحمل حقيبة إضافية مليئة بالكتب، بينها كتاب يثير الشبهة، وحين فتح حرس الحدود الحقيبة، أخبر الضابط بما وجده بين حقائب الركّاب، فأشار له الضابط بيده علامة تدل على عدم الاهتمام، وفي رحلة سبقتها اهتديت إلى طريقة أبسط بأن أحمل الكتاب بيدي، كأي مسافر يقاوم الضجر بقراءة كتاب، وحين نقترب من نقطة التفتيش، أضعه بالمقلوب على واجهة السيارة، ثمّ أغطيه بعلبة المناديل الورقية، من دون اكتراث. هذه المرّة، كنت خائفاً حقاً، فكتاب من نوع "السيطرة الغامضة" للأكاديمية الأمريكية ليزا وادين، لا يمكن أن يمرّ بسلام. الريبة ستبدأ من صورة الغلاف، ثمّ العنوان الفرعي للكتاب "السياسة، الخطاب والرموز في سورية" يكفي أن يلقي ضابط الحدود نظرة عجلى على محتويات الكتاب حتى يتأكد بأنه قبض على صيد ثمين. كنتُ أتخيّل الموقف، لحظة وقوعي في الفخ. قررت على الفور، أنّ انهي قراءة الكتاب، قبل عودتي، ثمّ أتخلّص منه. كانت ليزا وادين التي

زارت سورية، قبل تأليفها الكتاب، تعمل على تفكيك شبكة من الرموز السورية في تمجيد الحاكم، في فترة حكم الأب، وكيفية تقديسه بشعارات يعلم الجميع بأنها جوفاء، لكن تكرارها المستمر، سواء في المدارس أو الجامعات، أو في الاستعراضات والتظاهرات الوطنية، وُضع الأب القائد في مرتبة الأسطورة المقدّسة، وتالياً ترسيخ إستراتيجية للسيطرة تقوم على فرض الطاعة بدلاً من الشرعيّة، في لعبة خداع صريحة بين الطرفين من طريق الانضباط والعقاب، وصولاً إلى الإخضاع المنظّم بتأويل التاريخ ومصادرة الإرث الثقافي والاستيلاء على مسميات ومعاني الأشياء إلى درجة القداسة.

قرأت الكتاب على دفعتين بنهم جائع إلى وجبة شهية، خلال ثلاث ساعات. قضيت ساعتين في غرفتي بالفندق، متخليّاً عن وجبة الفطور المجّانية، وساعة في مقهى رصيف على شارع الحمراء. في الصباح التالي، وقبل أن أغادر الغرفة، أودعت الكتاب في درج الكوميدينو المجاور للسرير، وتخيّلت نزيلا آخر، سيكتشف وجود الكتاب بالمصادفة، وأن يصيبه ما أصابني من ذهول، وربما لن يثير فضوله على الإطلاق، مكتفياً بتقليب صفحاته بضجر، ثم يلقيه جانباً، من دون اهتمام، أو أن العاملة الآسيوية في خدمة الغرف، قد وضعته في سلّة المهملات، بلا اكتراث.

حكايات تروى على موائد العشاء

2013 /7/20

لا سبيل إلى حلب، كما كان المتنبي ينشد في بلاط سيف الدولة الحمداني. المدينة مدمَّرة تقريباً، أحياء كاملة سوّيت بالأرض، آلاف الضحايا دُفنوا تحت الأنقاض. الطريق الدولية إلى عاصمة الشمال مغلقة، بعد أن سيطرت الكتائب المسلحة على الأرياف المتاخمة للمدينة، واستباحت كنوز المدينة العريقة. اللهب يتصاعد من الأسواق القديمة، أسواق الأقمشة المطرّزة، وصابون الغار، والتوابل، والزعتر.

شاحنات ضخمة تحمل مصانع كاملة، وتتجه نحو الحدود التركية كي تُباع كخردة، أو بربع أثمّانها. مجاعة عمومية، ونزوح جماعي، وداء اللشمانيا والتيفوئيد والكوليرا. لن ننصت ثانيةً إلى تسجيلات الأذان بصوت صبري مدلّل، ولن يعود محمد عبد الوهاب إلى الغناء في مدينة السمّيعة. ولن تزورها أم كلثوم لتغني في مسرح الشهبندر. ساعة باب الفرج معطّلة، ورائحة الشواء البشري تتفوّق على رائحة الكباب الحلبي المشهور لن نشرب القهوة في أحد مقاهي ساحة سعد الله الجابري، ولن نصعد إلى كتف القلعة لرؤية المدينة من الأعلى. لا إجابة لدى سعد يكن عن مصير شخوصه في عزلتهم، بعد أن احتل مسلحون تكفيريون محترفه في ضواحي المدينة، وأوقدوا النار في لوحاته. مسوخ متطاولة تعيش عزلتها الأبدية وسط الحشود. الشخوص لا تتغير، ربما تتوارى إلى حين، أو يخطفها الموت، سواء أكانت في مقهى، أو حانة، أو ملهى ليلي. وجوه

شاقولية محوّرة لا تكتفي بوحشتها، بل تذهب إلى أقصى تخوم جحيمها، أو انزلاقها إلى التهلكة. ننصت إلى ما يجول في دواخلها، أو ما يمكن أن نسميه "الكائن في عزلته"، وإذا بالكراسي الفارغة تسجّل أسماء الغائبين، وأطياف من رحلوا، ولا تزال رائحتهم تعبق في المكان: متوالية صبري مدلل، وشحوب وجه لؤي كيالي، والدماء التي تسيل من بيانو العازف. الغياب صوت. لعل هذا ما رغب سعد يكن بتوثيقه في معظم أعماله الممتدة طوال أربعة عقود. أن يكون اللون صوتاً، كي يوقظ الحواس الأخرى. صخب لوني ورؤية جحيمية تعكس مونولوجات وجوه معذّبة، تائهة، وحزينة، تفتقد الملاذ والطمأنينة والخلاص. مؤرخ حلب اللوني، قرع جرس الإنذار باكراً، وهانحن نستعيد ذاكرة المدينة عبر ألبومات أعماله، بعد أن تحوّلت المدينة واللوحات إلى خرائب وحطام ذكريات. هنا لن نجد آثار أول مطبعة عربية لغةً وحرفاً، المطبعة التي أسسها أثناسيوس الثالث دبّاس، في العام 1706، ولن نجد صدى لما ردّده فرنسيس فتح الله مرّاش في "غابة الحق في العام 1865: "أما تعلم أنه لا يوجد لأهل الخشونة والبربرية ميثاق سوى الكذب، ولا شريعة غير الاحتيال والمكر، ولا حكم عدا التعدي والظلم، ولا حاكم خلاف الرشوة، ومن أصعب الأمور إخضاعهم دون تبديد"

ولكن ماذا تفعل فرانشيسكا بوري وسط هذا الجحيم؟ سنة من الرعب والخوف والجوع، عاشتها الصحافية الايطالية وسط المعارك الضارية. داهمتها حمّى التيفوئيد، وفي أحد الاشتباكات أُصيبت بطلق ناري في ركبتها. لم تعبأ الصحيفة التي تعاقدت معها بمصيرها، فهي، على أية حال،

مراسلة حرّة، تعمل على القطعة. سبعون دولاراً مقابل كل حكاية "هناك، ما وراء البحر الأبيض المتوسط، يسألون عن المعارك والقتلى: ستة آلاف كلمة، و لم يمت أحد؟"، يقول رئيس تحرير الصحيفة مستنكراً، تعليقاً على ما كتبته عن الأوضاع المعقّدة في مدينة حلب.

الصور التي نشرتها مجلة "التايمز بعدسة اليسيو رومينزي لقتلى من مدينة حمص، أيقظت ضمير الصحافية الايطالية وقررت الذهاب إلى أرض الجحيم والجنون. قالت لنفسها "لن يكون ما يحدث هناك، أكثر هولاً مما عشته في كوسوفو، أو العراق، ولن أشعر بالفزع مرّة أخرى، في حال تطايرت في وجهي بقايا دماغ، فقد عشت تجربة مماثلة في البوسنة، وكان عمري 23 عاماً"

كان المصوّر قد دخل سرّاً إلى المدينة المشتعلة عبر أنابيب المياه، لكن فرانشيسكا بوري اختارت الحدود التركية كي تتسلل إلى حلب، الحدود التي باتت معبراً للجهاديين والأسلحة وقطّاع الطرق والفارين من الجحيم. كان انطباعها الأول بأنها تشهد حرباً قذرة يخوضها الطرفان متراً متراً، ومن شارع إلى شارع، كما يحدث في الحروب القديمة، فيما تنشغل إدارة الصحيفة بكيفية الحصول على صورة حصرية للصفحة الأولى من الصحيفة، مثل صورة الطفل الذي يدخن سيجارة، وفي يده رشّاش كلاشينكوف، أو حكايات مشبعة بالدماء، فصحافيو الحرب بالنسبة للقرّاء "ثروة من حكايات تروى على موائد العشاء عن هؤلاء البرابرة" لا أكثر ولا أقلّ.

قهوة وتتن وكحول

2013/7/21

أضعتُ كتاب شهاب الدين أحمد البديري الحلّاق "حوادث دمشق اليومية" فتّشتُ عنه، بين الكتب المتراكمة بفوضى فوق المكتب، أكثر من مرّة، و لم أجده، كأن قدر هذه المخطوطة بأن تضيع ثانيةً، كما في رحلتها الأولى إلى دكّان عطّار مجهول. بعد عناء، وجدته عالقاً أسفل المكتبة، وقد بللته المياه، إثر تنظيف الغرفة. كان منفوخاً مثل جثة طافية فوق نهر، وضعته في الشمس كي يجف مما أصابه. هناك عبارة وردت في الصفحة 191، سجلّتها على ورقة، على شكل ملاحظة، ينبغي الاستفادة منها، بخصوص موجة الغلاء التي أصابت البلاد، إذ كان البديري يضع قائمة بارتفاع أسعار السلع، وينهيها بهذه العبارة "والحاصل كل شيء غال، والخلق في تعب بال"، لكنني خلال البحث في هذه الصفحة، لفتت انتباهي إشارة إلى صدور فرمان من والي دمشق بمنع القهوة "وأمرَّ برفعها من سائر قهاوي الشام"، وأن كلّ من يشربها، سوف يُشنق ويصلب. ويستنكر هذا الحلّاق مشهد نساء ورجال عند كتف نهر بردى المتاخم للتكية السليمانية "جالسين على شفير النهر، وهم على أكل وشرب وقهوة وتُتن، وهذا شيء ما سمعنا بأنه وقع نظيره حتى شاهدناه"

في مقهى الروضة، أعدُّ أيام الوحدة بمقياس سلحفاة هرمة، أخلطُ القهوة المرّة بالحنين. أفكر بقوائم التحريم التي تتراكم يومياً، وهل سيأتي يوم تُمنع فيه أسباب البهجة، أو أن يقتحم مسلح المقهى، ويطلق النار عشوائياً على

روّادِ المكان. كنتُ أجلس إلى طاولة، تقع عند مدخل الصالة، من جهة اليمين. أتخيّل رشقة رصاص مباغتة باتجاهي، وصرخات فزع، ومحاولات هروب، أو اختباء تحت الطاولات، ثمّ أضيف إلى مشهد الرعب، زعيق سيارات إسعاف كالصوت الذي اسمعه الآن، يعبر شارع العابد. ارتشفُ قهوةً باردة، ثمّ أقلّب صفحات جريدة أمامي، بانتظار أن يأتي أحدهم محمّلاً بأسماء معتقلين، أو قتلى جدّد، من مكانٍ آخر، على يد قنّاص، أو بعبوة مفخخة، أو بقذيفة هاون طائشة، إذ يستحيل أن ينجو أحد من هذا الكابوس خلال حديثه مع شخص آخر. عبور سرب من الأيائل باب المقهى، بسراويل ضيّقة، وكنزات قطنية مكشوفة الظهر، بدّد بعضاً من الهواء الثقيل المحمّل برائحة الموت. لحظات لا أكثر، ويجثمّ الهواء اللزج بثقله على الأرواح، ليختلط بمعارك لاعبي النرد، ومهجّري المدن الأخرى بلهجاتهم الهجينة، وأصواتهم المرتفعة، وكؤوس شايهم الثقيل.

من موقعي الاستراتيجي في المقهى، لطالما فكّرت بأن أضع كاميرا فيديو ثابتة فوق الطاولة، بعدسة مفتوحة على باب المقهى. عدسة ترصد حركة الداخلين والخارجين، ثمّ تضيق فتحة العدسة بما يكفي لتأطير حركة مؤخرات النساء فقط، فهنا على وجه التحديد، تكمن أزمة الشهوات المؤجلة، وجوهر حرية الجسد، وأشواق الذكورة المسفوحة في عراء العزلة القسرية. أثنى فيلسوف الأمل على الفكرة بحماسة، مستشهداً بأقوال غير موثّقة من عدمية هايدغر، وحفريات ميشال فوكو في الجنسانية والسلطة، ومفاهيم الرغبة والتحريم، والعشوائية الجنسية في المجتمعات الشرقية التي لا تخضع لتقنيات واستراتيجيات الحضارة اليونانية القديمة. في هذه

اللحظة دخلت المقهى غزالة مكتئبة، كانت قد خرجت للتو من قصة غرام فاشلة، وانضمت إلى الطاولة، فيما واصل فيلسوف الأمل حديثه بانفعال، تاركاً، هذه المرّة مارتن هايدغر يعوي وحيداً، تحت مروحة السقف "وما القلق إلا حالة الخوف المطلق أمام العراء المطلق"

عراء مطلق، وجنس، وكحول، فالحرب، كما يقول فيلسوف الأمل، هي توابل من اللذة، لذة القتل، ولذة العناق، ولذة الانعتاق الكلّي من الجسد. مزاج عرق الريّان في حانة اسكندرونة القريبة من المقهى، أضفى شجناً كربلائياً على تلك الظهيرة، خصوصاً، بعد انضمام منفي عراقي قديم إلى المائدة، لديه من أهوال الحرب ما يكفي كي نرى البلاد كجسد في طور الاحتضار. جسد مصاب بالطاعون، ومرضى يتدرّبون على النطق، بعد عقود طويلة من الصمت والخوف والريبة، إلى الدرجة التي جعلت طبيباً من الجولان المحتل أن يروي نكتة سياسية بالانجليزية، خشية أن يفهمها نادل المقهى، ويطعنه بتقرير أمني من العيار الثقيل.

اقتحام مواقع التواصل الاجتماعي حياة السوريين، وثورات الربيع العربي بدّلا الأحوال جذرياً، فلم يعد الكائن السوري مضطراً إلى أن يلوي عنقه، يميناً وشمالاً، كما لو أنه زرافة في حديقة للحيوانات، خشية إنصات أحدهم لما يقوله. يحتج فيلسوف الأمل على الفكرة، رافعاً يده المرتجفة، وهو يردّد "إنه الضجر يكرّر الكلمة ثلاث مرات بإيقاعات مختلفة، قبل أن يضيف بنبرة كحولية عالية "لقد ضجرنا من الشعارات الجوفاء، وبالروح والدم، وفلسطين التي تزداد نأياً، من هزيمة إلى أخرى،

ضجرنا من المافيات المتوحشة، وهدر الكرامة في وضح النهار انتهز المنفي العراقي رنين الهاتف المحمول للفيلسوف، واقتنص الفرصة مجدداً، وهو ينظر بابتهال إلى الغزالة الوحيدة في الجلسة، كي يقرأ "يتيمة الدهر"، القصيدة نفسها التي طالما كان يردّدها في جلسات مشابهة سابقة "أنا سنجاب الوقت الضائع، أركض إلى الأبد، وراء ثمّرة جوز فارغة، أتدحرج إلى الهاوية، مثل سيزيف بابلي معتوه"، لكنه هذه المرّة سيفاجأ بردّ حاسم اختزله فيلسوف الأمل بعبارة واحدة لا تقبل التأويل "أنت سيزيف؟ أنت خراء"

كان طاهي الحانة المشهور بوجباته الشهية من الكباب الحلبي، ينصت إلى صخب الطاولة، فرفع من وتيرة حركة سكينه في فرم قطعة اللحم الممزوجة بالبقدونس والبصل والتوابل الحرّيفة، فارتطم إيقاع السكين فوق الخشب، بصوت مغنٍّ كان يهتف من شاشة معلّقة على الجدار بأغنية تمجّد انتصارات الجيش في معاركه ضد الكتائب المسلّحة. ضيق الحانة ورائحة النشادر التي كانت تهب على دفعات، استدعيا مذاقاً آخر للكباب، بالإضافة إلى عشوائية الحوارات المتداخلة، كما لو أنها طبق فتوش. حروب العشائر، وأصناف الأسلحة، وارتفاع ثمّن الكحول، وفيديوهات الذبح والجلد والرجم، والجنس، وصولاً إلى تفسير أسباب استيراد ميكرو باصات صغيرة للخطوط الداخلية. مجاز استعاره عالم اجتماع مؤجل، كان صامتاً طوال الجلسة، بعد بطحة كاملة من العرق المغشوش، حين اعتبر الميكروباص ماكيتاً مصغراً للبلد، أن تخترق الزحام وتصعد إلى مقعد يشبه قبراً متنقّلاً. ميكروباص لن تتمكن من الصعود

إليه، أو النزول منه، من دون انحناء. المشية محدودبة الظهر، هذه ليست سلوكاً فيزيائياً فقط، إنما ترخي بظلالها على كل ما يخص الكائن السوري المريض.

انسحب فيلسوف الأمل من الجلسة بصحبة الغزالة التي تقطن في ضاحية مجاورة لسكنه، عند السابعة مساءً، وهو ما أفسح المجال للمنفي العراقي باستعمال معجم العامية العراقي في الشتائم النفيسة، وهجاء "ابن النعل" الذي يظنّ نفسه جان بول سارتر، فيما حاول عالم الاجتماع المؤجل تفكيك بنية الشخصية السورية، في محاولتها الأولى منذ قرن، نزع الحراشف الاصطناعية عن جلدها الأصلي، فاستل من حقيبته كومة من الأوراق، قال إنها مسوّدة لبحث طويل ينوي أن ينشره في أحد المواقع الالكترونية الرصينة، وحين أحس بامتعاض ما تبقى من رفقاء الجلسة، طلب نصف لتر من العرق على حسابه الشخصي لزوم الانتباه الجدّي.

لم أنتبه أثناء هذه الجلسة جيداً، إلى ما كان يهذي به عالم الاجتماع المؤجل، فالصخب، لم يسمح بمثل هذا الأمر، لكنني لاحقاً، وجدت البحث منشوراً فعلاً، على شبكة الانترنت، بعنوان لافت "رعاة يتأبطون حواسيبهم في صحراء السراب"، وهنا سأقتطف منه بعض الأفكار المهمة في توصيف محنة البلاد:

(فاخترع كل سوري خندقه الخاص للدفاع عن هويته المتخيّلة. في المقام الأول، تثاءب البدوي النائم في الدماغ، فاستل سيفه من غمده، متجاهلاً التمارين الطويلة على المدنيّة والاختلاف. لغة جاهلية تقتحم

أبجدية قيد التشكّل، فتطيحها تحت وطأة الحماسة، والرغوة السائلة لرعاة يتأبطون حواسيبهم في صحراء السراب، في وقفة طللية).

و(بورتريه سريالي لشخص يرتدي سروال جينز ويضع فوق رأسه عقالاً لا مرئياً، يحميه من شمس الأسئلة الصعبة. يرنّ هاتفه الخلوي فيستلّه مثل خنجر يغرق في ثريد الثورة إلى آخر أصابع يديه، ثمّ يلقي بالعظام إلى من حوله، فهذا المنسف الغارق في الأدام الدسم يستحق المغامرة).

و(يتسلل من متاهة أحرف الكي بورد حداء طويل، وعبارات غطّاها غبار المعاجم، وكأن غبار غزوة أُحد يعمي أعيننا إلى هذه اللحظة).

و(بيانات لا تتسع لها بسطات سوق الحميدية، بيانات مكتوبة على عجل، بطريقة كُتّاب العرائض. بعضهم يرغب الزواج عرفيّاً بالثورة، وآخر يفضّل زواج المتعة، وآخر بطريقة الحبل من دون دنس. لكن من يدفع المهر يقبع في مكانٍ آخر، أو إنه من فرط الانحناء تحت ثقل راكبي الموجة، فقدَ صوته للاعتراض أو الاحتجاج، أو الصراخ).

و(القاموس الجاهلي يتسع للبيانات المضادة أيضاً، في سوق عكاظ السياسي، فيما الثورة ترتدي ثوب العروس الملطّخ بالدم. دم العذرية على الأرجح. الفحولة اللفظية تتسع لكل الهواة في كتابة الإنشاء الركيك والزعيق والاسم المستعار).

و(إن فكرة التغيير تحتاج إلى معجم جديد يواكب لحظة غير مسبوقة عربياً، لكن ما نجده، هو خطاب قديم يستعين ببلاغة الأسلاف، أو أنّه يجيب عن أسئلة جديدة بأفكار قديمة).

و(قراءة شعارات يوم الجمعة العظيم، تؤكد الحيرة العمياء ما بين الجامع والفايس بوك، وحرب دائرة الطباشير في الشدّ والجذب، بالإضافة إلى تصنيع صنم من التمر بالأسماء الجاهلية نفسها. ذلك أنّ الثورة أو الانتفاضة أو الاحتجاجات– سمّها ما شئت – التي ما زالت في المخاض وعسر الولادة، تحوّلت إلى أيقونة مقدّسة، محرّم الاقتراب منها من دون وضوء وتعاويذ وتمائم، وكأن مريديها استعاروا قاموس مديح طغاة الأمس، وألبسوه للثورة في قفصها الزجاجي. وإذا بها تدخل المزار المقدّس بالطقوس نفسها التي يحفظها مريدو الأولياء الصالحين).

(بائعو تذاكر الثورة، افتتحوا أكشاكاً في شوارع الفايس بوك لبيع الأغاني الركيكة والشعارات المستعملة المستوردة من دكاكين اليسار القديم، ولكن بدمغة مختلفة. هكذا ارتدى هواة ومتعطّلون "تي شيرت" الثورة، وذهبوا إلى الرقص في حانات باب توما إلى حدود الغيبوبة، حزناً على أرواح الشهداء).

و(لعل ما نحتاج إليه في هذه اللحظة، هو فحص المشهد من خارج حدود الخريطة، لا من تضاريس الداخل وحسب، في جردة حساب شاملة، بقصد تظهير الصورة بالألوان الطبيعية، وليس عن طريق "الفوتو شوب" لتزيينها فقط).

و(حاشية "الفيل يا ملك الزمان"، تنهمك في مديح مزايا الفيل بالأدوات نفسها التي تمدح بها مزايا الثورة).

و(.. لكن السراج يحتاج إلى زيتٍ صاف، كي يضيء العتمة، فتجاوز

التفاصيل الصغيرة، سيراكم تبعات كبيرة، وأعباء سوف تتكدس لتصير في نهاية المطاف– هي الأصل وليس الصورة، سواء لجهة تقنيّة التدوين، أو لجهة تقديس الأيقونة "الصنم").

قرأت ما كتبه عالم الاجتماع المؤجل بشغف، إذ كان يشرّح الجسد الجريح بمبضع دقيق وصارم، لكنني لم أجد له كتابات أخرى، في المواقع الالكترونية، كما لم أعد ألمحه في المقهى، أو في الحانات، فقد اختفى بطريقة غامضة، لكن فيلسوف الأمل سوف يخبرني لاحقاً، بأن عالم الاجتماع قد غادر البلاد إلى بيروت، بعد أن فقد غرفته المستأجرة في قدسيا، وقد شوهد يتسكع في حانات الجمّيزة بساقٍ عرجاء، يردّد أشعاراً للمتنبي وأبي نوّاس، مقابل سبعة دولارات، يطلبها بحسم وجسارة من أول شخص ينصت إليه، وحين يحصل على المبلغ بطريقة ما، يرمّم دماغه بقدح إضافي من الكحول، ثمّ يلجأ إلى النوم في مرآب مجاور، أو عند مدخل بناية مهجورة، أو على رصيف أحد الأزقة الفرعية.

جنّة الخشخاش

2013/7/26

حقول خشخاش على أسطح البيوت، وأسواق مكشوفة لبيع الأسلحة، ومضخات يدوية لاستخراج البترول. جغرافيا منهوبة بغياب السلطة المركزية، على امتداد أراضي الشمال المتاخمة للحدود التركية.

مراكز حدودية لتهريب الأسلحة إلى الداخل، وتهريب المخدّرات والنفط والقمح إلى الخارج؛ مصانع كاملة تجرّها شاحنات ضخمة تعبر الحدود إلى غازي عنتاب. تبادل مخطوفين، وأمراء حرب طارئون بأسماء لا تحصى. منظمات حقوقية يديرها عاطلون من العمل ببنود وهمية، ومواقع الكترونية مموّلة من جهات غامضة لطهي اللحم السوري في قدور افتراضية، وقبائل استيقظت على الغزو بعد نوم طويل. سيوف وبلطات وخناجر من القرون الوسطى، لإحياء محاكم التّفتيش، من طريق التكفير والرجم وجز الأعناق؛ مستشفى ميداني لسرقة الأعضاء، ومقابر سريّة لدفن الموتى تحت التعذيب. راجمات في ساحات الكنائس، وملاعب كرة القدم، ومآذن المساجد. هويات ممزّقة يتنازعها "توتّر العيش"، ووهم السلالات. مافيات لبيع المنافذ الحدودية بالساعة، مقاولات مرتجلة لنهب بيوت المهجّرين، تزوير الوثائق العقارية، وإتلاف أرشيف المحاكم. مسدسات، وبنادق أي كي 47، وقذائف هاون، آربي جي، قنابل يدوية، وذخيرة بمقاسات مختلفة، وألبسة عسكرية، وصواريخ حرارية، وكمّامات واقية من الغازات السامة، بضائع معروضة للبيع، في قرى ومدن تعيش أتون القتال. زهرة الخشخاش تنمو وسط حقول الزيتون والشوندر، تعبر حقول الألغام بعد شراء ضبّاط الجمارك، ودوريات الأمن. صفقات لبيع السلاح من مخازن الشبيحة ومسؤولين كبار في السلطة إلى كتائب الجيش الحرّ خمسون معبراً سريّاً بين لبنان وسورية لتهريب السلاح وبيعه بأسعار خيالية، عدا المعابر الحدودية من جهات العراق وتركيا والأردن. صواريخ أرض جو، كانت مملوكة لحزب الله، بين أيدي الجيش الحرّ في حمص.

جهاديون عراقيون يردّون الدّين لسلفيي سورية بتهريب السلاح من بغداد إلى الموصل، وصولاً إلى معبر ربيعة الحدودي. يشكو أحد المهرّبين اللبنانيين من سوء الأحوال في نهاية السنة الثانية للحرب قائلاً "باتت البغال الوسيلة الفضلى في تهريبنا للأسلحة، لقد لجأنا إلى هذه الحيوانات القوية في عملنا كبديل عن سيارات الدفع الرباعي التي لم تعد تنفع، بعدما اقفل الجيشان اللبناني والسوري كافة المعابر والطرقات البرّية غير الشرعية بسواتر ترابية وعوائق أخرى مما عقّد عملية التهريب وحدّ من عملنا، خصوصاً بأن أفراد مجموعات التهريب لا يعرفون بعضهم بعضاً، ويتخاطبون فيما بينهم بأسماء مستعارة" الصعوبات التي تواجه مهرّبي السلاح الأردنيين، قادتهم إلى مهنة أخرى، هي تهريب الكاميرات والهواتف التي تعمل بالأقمار الصناعية. يبرّر أحد المهرّبين رواج هذه البضاعة بقوله "يخشى المسلحون تعرّضهم لمذبحة على يد القوات النظامية، وفي حال حدثت مثل هذه المذبحة فإن تصويرها وبثها على مرأى من العالم، سوف يكون وثيقة دامغة لفضح ما يعانونه من حصار

منفى داخلي، وحميميات عابرة

2013 /8 /2

أستعرض الملفات المتراكمة لديّ، عن ديناصورات، ومستحاثات، ومقابر، وأوهام، وقوائم عن أشخاص تحوّلوا إلى أرقام لأسماء مجهولة في نشرات الأخبار، أو أسماء مستعارة تعمل على توثيق مستوى العنف

بصرياً، مرفقاً بهتاف "الله أكبر ملفات الكترونية تندلق من فم وحش على هيئة بلاد تنزلق تدريجياً إلى الانتحار الجماعي، فالبجع السوري ينتحر يومياً، من دون أن تسنح له الفرصة بتغريدة أخيرة.

صديقي المهاجر قسراً، يختزل أحوال البلاد بسطرٍ واحد، على صفحته الشخصية في موقع تويتر "هذه مواصفات نموذجية لحرب أهلية مؤكدة، لن ينجو منها أحد" ليس لدي إجابة حاسمة، في هذا الشأن، أو إنني لا أرغب بالانزلاق إلى مثل هذا اليقين. أمحو هذه الفكرة من دماغي، أريد أن أصحو من هذا الكابوس، على شمسٍ أخرى، وكأن كل ما حدث إلى هذه اللحظة، مجرد منام مفزع، لكن فكرة "الدياسبورا السورية" التي كان صديقي المهاجر يلحُّ عليها في رسائله الالكترونية، خلال الأشهر الماضية، تعاودني مثل لعنة: إنني أعيش في مربع صغير مثل "غيتو"، بالكاد أتجاوز حدوده، وهو ما يفعله آخرون في المدينة نفسها، فاختراق المدينة مقطّعة الأوصال، يحتاج إلى مغامرة شاقة. يتأمل عنصر الأمن بطاقتي الشخصية، ثمّ يسألني بنبرة اتهام، لمجرد انتقالي من حي الصالحية إلى حيّ الميدان، في أطراف العاصمة "ماذا تفعل هنا؟"، وكأنني عبرت الحدود إلى دولة أخرى، من دون وثائق سفر، فما بالك لو غامرت بالسفر إلى مدينتي الأصلية التي تقع على بعد ألف كيلو متر عن دمشق؟ وكيف سأعبر مسافة الخمسين متراً، بعد كراج الحافلات، بوجود قنّاص يصطاد ضحاياه من المسافرين كل يوم؟ وفي حال تعرّضت للموت هنا، هل سأُدفن في مقبرة مجهولة؟ دياسبورا في الداخل، وأخرى في أنحاء العالم، فيما تتحوّل فكرة الوطن المتخيّل إلى مقبرة جماعية.

(بتاريخ 30 تموز – 2013، نشرت صحيفة "الوطن المحليّة، الخبر التالي: "قرر مكتب دفن الموتى رفع أسعار قيمة بناء القبر إلى 12 ألف ليرة تتضمن رسوم الدفن، وتخصيص سيارة وغسيل وتكفين وإيصال المتوفى إلى المقبرة، وأجرة الحفّار، ونصّ القرار الذي أصدرته محافظة دمشق، تحديد سعر كلفة القبر العادي بمبلغ 7500 ليرة، وكلفة قبر من الموزاييك مع شاهدة وجرن وأسماء ورقم، للقياس الصغير 13 ألف ليرة، وللقياس الوسط 15 ألف ليرة، وللقياس الكبير 17 ألف ليرة، وكلفة قبر من الرخام للقياس الكبير 18 ألف ليرة، ويضاف إلى هذه الكُلف أجور تنزيل الوفية إلى القبر، وإجراء إصلاحات للهيكل السفلي والخارجي بقيمة 1000 ليرة لمصلحة الحفّار).

كان ميلان كونديرا قد رصد فكرة الحنين إلى الأوطان المتخيّلة، في روايته "الجهل"، وفحص بمهارة معنى المنفى، هذا التمرين المتواصل على الاشتياق، أو اختراع بلد في المخيّلة، أما أن تعيش منفىً داخلياً، فهذا شرخ يصعب ترميمه، أو شرحه، أو تفسيره، كأن يستوقفك حاجز أمني على بعد أمتار من بيتك، مستفسراً عن هويتك ووجهتك ومحتويات حقيبتك، وإذا برصيف الألفة الذي لطالما عبرته مئات المرات بمزاج مختلف، وروح مرحة، يتحوّل فجأة إلى رصيف معاد، لا يشبه ما كنت تختزنه عنه من ذكريات، ما قبل الحرب، أو أن تقف على أطلال بيتك القديم مثل شاعرٍ جاهلي، من دون أن تجدَ قافية مناسبة للوصف، فأنت، في هذا المقام، تحمل كل مواصفات المنفيّ لجهة النزوح والاقتلاع والشتات والتهجير والفقدان،

والحنين، تتأبط "هوية منشّقة"، وذات متشظيّة، تائهة، وملتبَسة، تحلّق في منطقة اللاجاذبية.

على رصيف مقهى "كولومبس" في ساحة عرنوس، يستعيد ليل دمشق صخبه، وكأن صوت القذائف المتجهة إلى برزة والقابون ومخيّم اليرموك، تعني بلداً آخر سيهزّ أحدهم رأسه ويقول بلا مبالاة "هذا صاروخ أرض– أرض"، فيما يستلم آخر، بعد دقائق، رسالة على هاتفه النقّال بمكان وقوع القذيفة، وعدد الضحايا، ثمّ يكمل ارتشاف قهوته، بصمت وحيادية، فالقذيفة تخص "الآخر"، ولا تعني من يمضي وقته بمرح في "المنطقة الخضراء"

كنت أنتظر (مريم. ج)، بعد دردشات ليلية متواصلة على الفيس بوك، انتهت أخيراً، إلى هذا الموعد المسائي. ممثلة في مسرح الدمى، تكتب قصصاً مرحة على صفحتها عن الأرانب والسلاحف والثعالب، وتستشهد بأقوال من نيتشه، وكازانتزاكي، والطيب صالح، وإدواردو غاليانو، أية فرصة استثنائية؟ كانت عيناي معلقتين على وجوه العابرين من يسار الساحة، بانتظار قدومها. عرفتها على الفور، قبل أن تقطع الشارع من جهة فندق أرميتاج نحو رصيف المقهى، فقد كان شعرها الأحمر الناري القصير، العلامة التي تميّز بروفايلها في صفحتها الشخصية. طلبتْ مشروباً غازياً، وزجاجة مياه معدنية، وطلبتُ قهوة بالحليب. اقترب شحّاذ من سور المقهى، وألقى مصحفاً صغيراً على الطاولة، مصحوباً بدعاء، أعدته إليه فوراً، بينما كانت مريم تنظر باستغراب إلى حجم الحشود التي افترشت العشب، والكراسي البلاستيكية في حديقة عرنوس المواجهة للمقهى. قلت

لها متفلسفاً "إنها بابل اللهجات، بعد أن تحوّلت إلى مكان للمهجّرين من بيوتهم في تلك الأمسية، روت لي مريم ما لم توضحه في حواراتنا على الفيس بوك، منذ أن هجرت بيت أهلها في قرية متاخمة للحدود اللبنانية، إلى زواجها القسري من عامل بناء، وهروبها إلى دمشق، وتعميم اسمها على المخافر ببطاقة بحث، قبل أن يستعيدها زوجها مرّة أخرى، بقوة القانون، ويخضعها لجلسات تعذيب يومية. كنتُ أحاولِ رسم صورة لتلك المرأة التي كانت ترتدي حجاباً، وتنظّف زريبة الأبقار نهاراً، وتسلّم جسدها ليلاً، من دون شهوة، إلى ذلك الرجل الذي ظل غريباً عنها، حتى بعد ولادتها طفلتها الأولى. في دمشق عملت مريم نادلة في كافتريا مجاورة لمقهى كولومبس، قبل أن تُهدم وتتحوّل إلى مرآب مأجور للسيارات، ثمّ بائعة في أحد المولات، قبل أن تنتقل للعمل في محطة إذاعية خاصّة ببرنامج صباحي تعد فقراته بنفسها "كنت أحكي لمستمعي الإذاعة، نتفاً من يومياتي.بمكاشفات جريئة، لم تكن معتادة قبلاً، كما كنت أشرك المستمعين بمقاطع من قراءاتي لروايات وكتب فلسفية، وأشعار من العالم، وسجالات حول قضايا الجنس والدين وحقوق المرأة، وكانت مكافأتي، هي إيقافي عن العمل في الطريق إلى غرفتها المستأجرة في حي المهاجرين، ذكّرتني بعبارة، كنت كتبتها لها، في حوار ليلي متأخر" لا يليق بامرأة فاتنة مثلك، أن تكون وحيدة" أجبتها "ولكنني كنت اعنيها حقاً "

مريم وأنا، كنّا نرمم ما لم نقله في مواعيدنا المباشرة، بحوارات مراوغة على التشات. كانت مثل ثمّرة شهية تحتاج إلى أن يهز أحد ما، غصن الشجرة حتى تقع بكامل شهوتها على الأرض، إلى أن انزلقنا معاً، على

سجادة عجمية من الرغبات المتأججة بمكاشفات حسيّة صريحة، وجنون لاحق، في غرفة معتمة، إذ لم يكن لدينا الصبر، كي نشعل ضوء الغرفة.

هل كنّا نتشبّث ببقايا حياة، وسط فوضى الحرب وجحيمها؟ على الأرجح، كنّا نود الفرار إلى المجهول، بوقت مستقطع من الموت المؤجل، بمعانقات حميمية، وبلاغة حسيّة، تتوق إلى الانعتاق من كلّ ما كان يحيط بنا، من آثام الأمس.

كانت مريم تحاول أن تخلع جسدها القديم بشبق جنوني، وعواء وحش برّي جريح، أن تداوي أوجاع الجلد والروح بعشبة الشهوة: تشمّني، تلعقني، تضمّني، مثلما كانت تهدّدني تماماً، في محادثاتنا على التشات، بأنها، في حال، هدمت جدار وحدتها، ستهوي بي إلى كهف ملذات، لم ادخله قبلاً، ولن أعود الشخص الذي كنته، قبل وجودها في حياتي. سأكتشف بالتدريج، أنها كانت تقشّر طبقات الانتهاك عن جلدها، طبقةً، طبقة، إلى أن تتنفّس مسامات جلدها البرونزي، هواءً مختلفاً، وشبقاً جنونياً، ورائحة سريّة، كانت تهب عليّ، في وحدتي. وسأتذكّر جنونها، حين قررت أن تحلق شعرها على الصفر، وكأنها تمحو كل ما كان يربطها بحياتها السابقة، أن تبتر أصابع يد زوجها، وهي تجرّ شعرها الطويل بعنف، ليرتطم رأسها بالجدار. في مقهى الروضة، صبيحة يوم جمعة معتدل، ذكرت مريم عرضاً، إحدى رواياتها المفضّلة، وكيف أنها حفظت مقاطع كاملة منها لفرط عذوبتها وشاعريتها، رغم أنها رواية عن الحرب. كانت تقصد رواية "قلم النجّار" لكاتب إسباني اسمه مانويل ريفاس،

ورغم إنني قرأت الرواية منذ سنوات، لكنني لم أتذكّر سطراً واحداً من أحداثها. فتّشت عن الرواية في مكتبتي، فلم أجدها. في صباح السبت، حصلت على نسخة جديدة من الرواية، من واجهة إحدى المكتبات، وبدأت قراءتها على الفور.

لا تعلم مريم بأنها أهدتني تحفة روائية، إذ كنتُ أفكّر حينها، في كيفية احتدام الرغبة في زمن الحرب، وهو ما وافقتني عليه، في حوارٍ سابق، بخصوص تبرير علاقتنا المحمومة، فقد كانت الرواية صورة مدهشة للحرب الأهلية الإسبانية، وأحوال المعتقلين في أحد سجون الجنرال الفاشي فرانكو، وقصص الحب التي تفوّقت على الموت، وكيف أن أرواح الضحايا ظلّت تحوم في ذاكرة حارسِ السجن، مثل لعنة أبدية. كان أحد المعتقلين رسّاماً، يضع على أذنه قلم نجار، يستعمله لرسم رفاقه في السجن، بدلاً من صور الأنبياء والقديسين في واجهة بوّابة السجن. سيقتله حارس السجن بطلقة واحدة في رأسه، في إحدى النزهات اليومية للقتل، وفي لحظة سقوطه، يقع قلم النجّار على الأرض، فيحتفظ الحارس بالقلم، القلم الذي سيضيء مأساة الرسّام في ذاكرة السجّان الذي واصل حياته، بانتهاء الحرب، حارساً في ماخور، من دون أن تغادره لعنة هذا الرسّام أبداً.

كانت عبارة مريم التي اقتبستها من الرواية ترن في أذني مثل أغنية في أسطوانة عالقة، طوال اليوم "كل الناس صالحين للحرب. إن لم يكن كي يقتلوا، فلكي يموتوا"، ورغم أنها ارتجلتْ عبارة من خارج الرواية لتخفيف وطأة الكلمات "ولكنّنا سننجو، وسنكون نحن، في موقع الشهود، على

ما يحدث في هذا المسلخ"، إلا أنني أحسست بالانقباض، فقد كان الموت هو الحقيقة الوحيدة التي تزداد سطوعاً، من جنوب البلاد إلى شمالها، بأرقام ترتفع وتنخفض، تبعاً لعدد المجازر، وبالحيادية نفسها التي تُقرأ بها نشرة أحوال الطقس، ولكن من دون أن يبزغ ضوء في هوّة اليأس السحيقة التي غرقنا في مستنقعها المتعفن، يوماً إثر يوم.

سرير عمره ثمانية آلاف عام

2013 / 8/8

مذبحة طازجة على الشاشة، في غزوة مضادة إلى قرى الساحل، انتهت إلى خطف مئة وعشرين فتاة إلى مكان مجهول بوصفهنَ سبايا، ومشهد إحراق ثلاثة أكراد أحياء، في الشمال، على يد تكفيريين، وانفجار سيارة مفخّخة في جرمانا، وطيران حربي فوق ريف دمشق، وسبع عشرة قذيفة تستهدف موكب الرئيس في طريقه إلى صلاة العيد. وليمة كاملة ليوم حار من آب. بلاد لم تعد بلاداً، حتى في الخرائط المدرسية. مهاجرون وأنصار يتبادلون الاتهامات فوق أشلاء بلاد ممدّدة فوق سرير عمره ثمّانية آلاف عام. في المنام، أرى وحشاً أسطورياً، يتجوّل بين الخرائب، وقد ابتلع ألواح ايبلا، وفخاريات ماري، وأبجدية أوغاريت، وأديرة معلولا، والجسر المعلّق في دير الزور، وتمثال عشتار في المتحف الوطني. وحش بأربع قوائم، وكتاب فتاوى، وأقبية تعذيب، وثأر قديم، وقرابين. وحش جائع على هيئة رجل كهف استيقظ على رائحة دم، وعطر عذراوات،

وثمّار بريّة، وحش يشعل ناراً بأصابع يديه، يحرق أكداس القمح، والجسور، وعجلات السيارات، وأشجار المشمش والكينا والتفاح، وأعمدة الكهرباء، يلقي الجثث من فوق أسوار قلعة دمشق، فيهتزُّ ضريح صلاح الدين الأيوبي، وتتداعى جدران الجامع الأموي، ويتطاير سقف سوق الحميدية. حشود من النساء يتناهبنَ جثث المفقودين، كما يحدث في رواية "الأرامل لأرييل دورفمان، كل واحدة منهن تدّعي أن الجثة التي بين يديها تخص زوجها أو والدها أو أبنها، رغم تشوّه ملامحها. لا طائرات في المنام، لكنني سأستيقظ على صوت طائرة حربية تخترق سكينة الصباح، ترتطم يمامة بريّة بشبك النافذة، ثمّ تطير بصعوبة، كما لو أنها فقدت جناحيها. أسراب من السنونو تحلّق في الفضاء بارتباك، جيئةً وذهاباً، وصوت مشروخ لمؤذن جامع أنس الأنصاري. لا اتصالات إلى مدن الأطراف، كنت أرغب بأن أسمع صوت أمي، بعد غياب. يوم خميس مضجر. سجائر دينفر ألمانية، بدلاً من الجيتان الفرنسي، معكرونة باللبن. حبّة من "موتيفال" كل يوم، بأمر من الطبيب، لأصحاب القلق الاكتئابي المتوسط. قبل ثلاثة أيام، سألني الطبيب: هل هناك سبب محدّد لارتفاع ضغط الدم لديك؟ أجبته متفلسفاً: إنها مسألة تراكمات، وحطام وقت، وخراب بلاد. في ظهيرة مقهى الروضة، كنت أحاول تقشير طبقات الألم، أدخلُ أرشيفاً ضخماً يزدحم بصور القتلى والمخطوفين والمعتقلين، واللصوص والطغاة والمافيات. هويّات منسيّة، وقبائل متناحرة، ودم يسيل في الممرات. ابعد قدميّ عن مسيل الدم تحت الطاولة، ينسفح فنجان قهوتي دماً وبقايا رائحة هال، انهض باتجاه المغسلة، آثار خطواتي

على الرخام مختومة بالأحمر. اصطدم بكتف ابن خلدون في الممرّ، تتناثر أوراق كتابه "المقدمة" على الأرض، يربت على كتفي، وهو يحاول تهدئة فزعي، ثمّ يقول بصوت رخيم "العرب أمة وحشية، أهل نهب وعَبَث، وإذا تغلّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، يهدمون الصروح والمباني ليأخذوا حجارتها أثافي للقدور، ويخرّبون السقوف ليعمّروا بها خيامهم، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد، وأنهم أبعد الناس عن العلوم والصناعات"

كنتُ أفكّر بمريم.ج، حين ظهر اسمها على شاشة هاتفي المحمول، مرفقاً بعزف منفرد على العود من منير بشير، قالت أنها ستنتظرني في مقهى الداون تاون في الشعلان. اعتذرتُ من فيلسوف الأمل الذي ارتطمتُ بكتفه لحظة خروجي من باب المقهى مسرعاً، فأطلق ضحكة صاخبة، في تأويل أسباب مغادرتي مقهى المازوت على عجل، إلى مقهى البنزين (شيفرة نتبادلها في الإشارة إلى الفرق بين أماكن المواعيد العمومية، والمواعيد الخصوصية). قلتُ: كنتُ أفكّر بمريم، ولكنها، في الواقع، لم تغب عن تفكيري، منذ أن تعرّفت إليها، قبل أسابيع. استحضر في وحدتي صورتها، وطريقتها في الإغواء، وصناعة اللذة. في المقهى، أخبرتني مباشرة بأنها لم تعد ترغب بأن نستمر معاً كعاشقين. لم يكن لديها مبررات مقنعة. قالت "أنا مجنونة، ولن تحتمل نزوات جنوني، ولكنني لن أتخلى عن صداقتنا" لم يكن ما بيننا حباً، بقدر ما هو اشتهاءات متبادلة، لذلك لم أناقشها طويلاً بالأمر، وفي المقابل لم أشعر بالخذلان، ربما لأنني شخص ضجر أيضاً، أو إنني خشيت من تصرّف غير لائق، قد تلجأ إليه، في

لحظة طيش، في سياق فهمها الخاص لحريتها الشخصية، فهي، على وجه العموم، لا تتردّد في إعلان رغباتها وتنفيذها، لحظة التفكير بها. طلبتْ مني أن أرافقها إلى غرفتها في المهاجرين، هززت رأسي موافقاً ونهضتُ على الفور. في شارع فرعي معتم، أرخت طرف فستانها من الكتف، كي أرى وشمها الجديد. كان الوشم على هيئة قدمين حافيتين، وهو شعار ماركة ملابس معروفة. سألتني بإغواء: هل أعجبك؟ أجبتها بنعم. طوال الطريق كانت تقنعني بأنها عاهرة، وحين احتججتُ على الفكرة، قالت "أنا عاهرة، ولست مومساً، وهناك فرق واضح بين المفردتين"، ثمّ أضافت، وهي تعانقني عند مدخل الزقاق المعتم الذي يقود إلى غرفتها "لا تنس أن تفتّش في المعجم عن الفرق بين العين والميم"

قرّرت أن أتسكعَ وحيداً، من دون هدف محدّد، محاذراً المرور بالحواجز. عبرتُ سوقاً شعبياً للفاكهة، في ساحة الجسر الأبيض، تذكّرت أن مريم تحب الخوخ. أتجاهل دعاء شحاذ عجوز يفترش الرصيف. أمشي في المسافة الضيّقة التي تفصل بين باعة الألبسة المستعملة، والسيارات المسرعة: هل هذه الثياب لقتلى حروب بعيدة، ومن كان يرتدي هذا المعطف، قبل أن يصل إلى هذه البلاد، وهل رقصت إحداهنَّ أمام مرآتها بقميص النوم هذا؟ استحضر وجوهاً لا أعرفها لثياب مرميّة بإهمال وفوضى فوق طاولات مرتجلة. بائع أسطوانات مدمجة لأفلام مستوردة يركن بضاعته على جدار مرحاض عمومي. لم أتوقّع أن أجدَ فيلم "حجر الصبر للأفغاني عتيق رحيمي، بين هذا الركام من الأفلام السطحية. وتذكّرت بأنني أحضرت نسخة من الرواية منذ سنة، من دون أن أقرأها إلى الآن، لعلها اختفت بين

أكداس الكتب الجديدة، أو أن أحداً استعارها مني، و لم يعدها لي، وهو ما يحصل غالباً. كنت أراكم قناعة غائمة بأنني أفغاني مؤجل، وأن ما كنت أشاهده عن أفغانستان في نشرات الأخبار، أو الأفلام، أو التقارير، بدهشة وباستنكار، ثمّ بلا مبالاة، هاأنذا أعيشه الآن بنسخة مطابقة تقريباً، فكل ما يحدث هنا، كان قد حدث هناك. استوحى عتيق رحيمي فيلمه من خبر مقتل الشاعرة الأفغانية ناديا انجومان على يد زوجها، بعد أن قرأ كتاباً شعرياً لها، وقد أُعتقل الرجل، ثمّ سقط مريضاً، ونُقل إلى المستشفى ليدخل في غيبوبة طويلة.

وفقاً لأسطورة محليّة على المرأة أن تحكي آلامها وعذاباتها، مناجية "حجر الصبر"، الحجر السحري الذي يلجأ إليه أصحاب المواجع لكي يبثونه أوجاعهم وأحزانهم وأسرارهم، وعندما يصلون إلى ذروة الأسى، ينفجر الحجر ويتفتت، فتزول الأحزان. ترتفع وتيرة الألم إلى درجة الغليان، لتفصح المرأة تدريجياً، أمام زوجها الذي فقد الوعي، بعد إصابته في الحرب، وإهمال الجهاديين له، بمونولوغ طويل عن عذابات وأشواق ورغبات جسدها، غير عابئة بالمحظورات. اعترافات جريئة عن تقلّبات حياتها، ولحظات الحب المسروقة، ونصيحة بائعة هوى لها بأن تشفي جسدها بالحب المحرّم "فالرجال الذين يلجأون إلى الحرب، لا يعرفون كيف يمارسون الحبَّ" هنا، في أفغانستاني المتخيّلة، الحكايات مبتورة، والكراهية شجرة مثقلة بالثمّار، والبلاد تتأرجح بكرسي متحرّك إلى هاوية اليأس، وحكواتي الحرب يخترع قصصاً لا تقنع أحداً، فالأهوال أكبر من أن تروى في كتاب.

في أرشيفي الشخصي، احتفظ بمجموعة كبيرة من صور الحرب، بينها صورة لصبي يقف إلى جانب هيكل سيارة دمّرتها قذيفة في أحد شوارع مدينة حلب، وقد فرش بضاعته من ثمّار البندورة الطازجة، على ما تبقى من واجهة السيارة، فيما تظهر في خلفية الصورة بقايا أبنية مهدّمة، وثياب منشورة على حبل غسيل في شرفة أحد البيوت. لطالما فكّرت بأن تكون هذه الصورة، لقطة في فيلم، من دون أن أفكّر بتركيب اللقطات اللاحقة، يكفي، بالنسبة لي، أن تدور الكاميرا، حتى أجد تتمة الحكاية، في الفناء المجاور، أو وراء الستائر المرقّعة التي تحجب لاعبي نرد في زقاق مكشوف، عن عدسة بندقية قنّاص. في هذه اللحظة، ألقيتُ نظرة أفقية إلى الأسطح المجاورة، خشية وجود قنّاص، أتوهمه، في أكثر الأوقات فزعاً، ثمّ أتجاهل حضوره بالإنصات إلى ما يرويه أحدهم بصوتٍ عال، داخل ورشة للخياطة، تقع في الطبقة الرابعة من البناية المقابلة، عن ارتفاع أسعار اللحوم والسكر والزيوت، وأجور النقل في الحافلات العمومية.

مئات الأشرطة الملغومة، تتكدّس في اليوتيوب، تفوح منها رائحة الكراهية والدم والتخوين، فيما تغيب القصص الحقيقية بسبب زحام المقاولين على بيع بضائعهم المرغوبة لمحطات تلفزيونية عطشى للعنف. في شريط قصير لإعدام ثلاثة ضباط في إحدى ساحات مدينة الرقة، شمال البلاد، على يد رجال ملثّمين، بدا المشهد، وكأنه من إحدى ساحات روما القديمة، كان أحد الرجال الملثّمين يقرأ من ورقة بيده، قرار الإعدام، وسط تعطّش الجمهور إلى ساعة تنفيذ الحكم إذ انشغل المتفرجون بتصوير لحظة تنفيذ الإعدام بهواتفهم النقّالة، من دون أن يعبأ أحد منهم، إلى مصير

هؤلاء الضباط المتهمين بالخيانة العظمى، لكن ما لم يظهر في هذا الفيديو، حسب أقوال شهود، أن زعيم التكفيريين، أمر سائق شاحنة صغيرة بأن يلقي بجثث الضبّاط الثلاثة، في أقرب حاوية للقمامة، لكن سائق الشاحنة انطلق بالجثث إلى خارج المدينة، وقام بدفنها في الصحراء، وحين علمت قيادة جبهة النصرة بما حدث، أمرت باعتقال السائق وإعدامه في الساحة نفسها، بسبب رفضه تنفيذ الأوامر المقدّسة للجبهة.

تربكني هذه الهشاشة في تفسير ما يحدث على الأرض، وتفسير كيف انزلقنا إلى هذا المستنقع، أو إلى سجّادة الظلام، كما لو أننا ذاهبون في نزهة، نزهة "الموت ولا المذلّة"، ذلك الهتاف الذي تلاشى بتأثير الرصاص وازدياد عدد القتلى في ساحات التظاهرات. الموت، أرجوحة الرغبات، والدراجة الهوائية التي انحدرت إلى الهاوية بسببٍ من عجلاتها المعطّلة. في مستهل النزهة، أضعنا طريق العودة. متاهة في غابة وحوش، وهناك أيضاً، هذا التشبّث الطحلبي الزائف، بما لم يعد شعراً، أو هتافاً، أو شعاراً. وحدهم المقاولون، صيارفة بلاغة الاستبداد، يزيّنون النوم في مقبرة جماعية بخطب مستعارة من أرشيف طغاة الأمس.

"ملكُ أم كتابة؟"، كانت عبارة أمل دنقل تطاردني منذ أن دخلت مقهى الروضة. سألني رجل عجوز في الطاولة المجاورة، كان منهمكاً في حلّ الكلمات المتقاطعة في صحيفة محليّة عن اسم شاعر مصري راحل مؤلف من سبعة حروف. لا أعلم ما الذي أتى بأوراق الشاعر الجنوبي عن أبي نواس إليّ، ربما بسبب ارتطام قطعة العملة المعدنية فوق الرخام، بعد أن

وقعت من يد النادل: ملكُ أم كتابة؟ لا فرق يا صاحبي بين مقاولين يرِثون البلاد وأهلها، ومقاولين يسعون إلى أن يمتلكوا البلاد وأهلها، فنحن في نهاية المطاف، سنلتقي ذات ليل على مائدة دم، ذات ليل "كنتُ فيه: نديم الرشيد، بينما صاحبي.. يتولى الحجابه"

كما إنني لستُ صيرفياً يا صاحبي، كي تسألني هاتفياً، من مدينتك القصية، وسط ضجيج المقهى، عن أسعار العملات، وما هي نصيحتي لك، هل تحوِّل ما تبقى لديك من أموال تعويض نهاية الخدمة، إلى الدولار، أم تحتفظ بها بالليرة السورية؟ كنت أرغب بأن أسألك عمّا حل بقبائل مسقط الرأس، وهل استعاد فرسانها هيبة الغزو مجدّداً، كورثة نموذجيين لقطّاع الطرق، وهل لازلت تشرب الفودكا، كآخر ما تبقى لك من ميراث ستالين، أم أنك تفضّل اليوم، القهوة المرّة في مضافة عشيرتك، على أمل اقتناص حصتك من الغنائم، وأموال الجزية؟

هاهم بدو الصحراء يستعيدون إرثهم من الدم المؤجل، الدم المدفون تحت طبقات الرمل، على هيئة زيت أسود، فيغرقون بنعمة الغنيمة، غير عابئين بغيوم السرطان، يكدّسون العملة الورقية بالقبّان، إذ لا وقت لديهم للعدّ، فهذا قوتهم اليومي من تعطيل قوانين الدولة، واحتضار شهامة الأسلاف الكاذبة. يستبدلون الكلاشينكوف، ببنادق البرنو الصدئة، كي يحرسوا الزيت المبارك، ويشكرون الرب في الصلوات الخمس على هذا النعيم الأرضي، الذي أنساهم النظر إلى السماء، حتى تيبّست أذرعهم من الدعاء،على أمل أن تهطل غيمة ضالة فوق حقولهم من القمح والشعير والعدس.

ليست هذه البلاد جمهورية موز، ولا إمارة متمرّدة عند أطراف الثغور، أو طروادة محاصرة، إنها مزيج من كل هذه الجغرافيات: أقوام، وطوائف، وإثنيات، تخوض حروب إبادة بأقصى درجات اللذة، وكأنها لم تنم يوماً، فوق سرير عمره ثمّانية آلاف عام.

موسم وحيد القرن

2013/8/17

استيقظتُ في الرابعة والنصف فجراً. لم يزغ خيط ضوء واحد، مازال البرابرة نائمين، لا صوت قذائف بعد، عدا صوت المؤذن يشق العتمة. طعم القهوة يختلط ببقايا كابوس غامض. في المنام، كنتُ أحاول قراءة رسالة في بريدي الإلكتروني عن خبر موت أحدهم، لكنني لم أتبيّن اسمه. أضأت زر التشغيل في كمبيوتري المحمول، وذهبت مباشرة إلى صفحة البريد الالكتروني، علّني أجد تفسيراً للمنام. كانت هناك رسائل كثيرة، ليست مهمّة، عدا واحدة، مرسلة من أحد المنتديات الثقافية تدعوني إلى حضور فيلم "موسم وحيد القرن" للمخرج الإيراني بهمان قبادي، عن حياة شاعر كردي سجنته سلطات الثورة الإسلامية الإيرانية، ثلاثين سنة، بتهمة كتابة أشعار مناوئة للثورة. أثارني اسم "وحيد القرن"، وتخيّلت إننا مثله، كائنات قيد الانقراض، بسبب الإبادة المنهجية، يطاردنا صيادو الموت، من غابة إلى غابة، ومن بحر إلى يابسة، يخلعون قروننا الثمّينة لاستعمالها دواءً للأمراض النادرة، وتعويذة لطرد الأرواح الشرّيرة. دخنتُ

ثلاث سجائر مع فنجان القهوة، من دون أن يفارقني القلق، واللاطمأنينة، والوجع، أتأمل قرني الوحيد بإعجاب، فيما الأمل بانتهاء كابوس الحرب، يتضاءل يوماً إثر يوم. هل قلت الأمل؟ كم تبدو هذه الكلمة هجينة وغريبة وصدئة، ففي خرائط المتاهة التي نغرق في كهوفها، لن نجد طريق النجاة، لقد أضعنا خيط أريان الذي يقودنا إلى خارج هذا النفق، منذ أن نسينا أسماءنا في المقابر المجهولة، فالموتى تحوّلوا إلى أرقام في نشرات الأخبار، وبمرور الوقت، تراجع اهتمام الشاشات بنوعية موتنا، بعد أن فقد نكهته. موت بلا توابل، إذ فاقت كميّة العرض كمية الطلب بمراحل، فاضطررنا إلى صناعة الموت الكيماوي لزوم الإثارة، واسترجاع موقعنا المتقدّم في نشرات الأخبار المصوّرة.

سوف يلازمني الشرود، طوال جلسة الظهيرة، الجلسة التي تُعقد كل يوم سبت، في مطعم "البارون" في أحد فروع شارع العابد، بصحبة ورشة العجائز، كما اسميها، أولئك الذين عاصروا أزمنة الانقلابات العسكرية، وعواصف الأحزاب، ودمشق الخمسينيات وما تلاها من تحوّلات، وهاهم يحاولون بعكاكيزهم الاصطناعية، أن يقطفوا ثمّار اللحظة كضحايا نموذجيين لعسف السلطة، وسيف الاستبداد.

كان الشاعر الثمّانيني الذي عمل مع كل هذه العهود مثل لاعب سيرك ماهر، في قدرته على القفز من حبلٍ إلى آخر، يخترع سيرة ذاتية حافلة بالكفاح والمعتقلات والقصائد المناريّة. سيرة خالية من شوائب المنافع، يحضر فيها عنترة، فيما يتلاشى طيف شيبوب في سراب الصحراء، قبل أن

يطيح بالتتالي: نزار قباني، ومحمود درويش، والجواهري، وكان الآخرون يهزّون رؤوسهم طرباً لمذاق الكبة المشويّة، أكثر من قناعتهم بما يهرف به الشاعر، وسوف يؤكد الترجمان بأن الحرب التي تخوضها البلاد ستستمر عشر سنوات، وفقاً لتوقعات تقرير نشرته صحيفة "الغارديان" عشر سنوات؟ قالها آخر مستهجناً، ثمّ أضاف: ومن أجل ماذا؟ هل من أجل أن تستعيد الطوائف حروبها القديمة المعلّقة عند ناصية تاريخ موقعة ما، كي تستكمل ما بدأته منذ قرون؟ ثمّ ما معنى أن تهزم طائفةٌ، طائفةً أخرى، أكثر من إضافة مقابر جديدة، وخرائط وهمية لصفاء النوع. لا دماء زرقاء في هذه الجغرافيا التي عبر تضاريسها الإغريق، والرومان، والغساسنة، والمناذرة، والفرس، والعثمّانيون، والفرنسيون، في أكبر عملية تهجين للسلالات. قصيدة متهتكة لأبي نواس استلها أحدهم من جيب قميصه، أحيت جذوة الأمل في العروق الجافة، وقد تجاهل أصحابها الأمراض المزمنة بوهم الفياغرا، والشغف بالجمال الحسّي، ورحيق عرق الريّان. من جهتي، كنت أحلّق في ديار مريم بتأثير الكحول أولاً، وهرباً، من أحاديث مملّة، لطالما عاهدت نفسي، بأن ابتعد عنها. إنه الضجر مرّة أخرى، والضيق، والاختناق، في مربعك الصغير، أو منفاك الداخلي، سباق المائة متر، بين البيت والمقهى، بين شارع العابد، ومحطة الحجاز، أو ساحة الجسر الأبيض، كأبعد مكان لخطواتك المتعثّرة، وخشيتك من وقوع انفجار مباغت، في أية لحظة، وفي أي مكان تعبره بالمصادفة.

كانت مريم قد أرشدتني إلى مكان عملها، في ساحة الجسر الأبيض. يقع مكتبها في قبو، بنافذة مفتوحة على الشارع: "حين ستقف على

الرصيف المقابل للنافذة سأحسُّ بوجودك"، ثمّ أضافت مصحّحة "سأشمُّ رائحتك" غادرتُ مطعم البارون، نحو الخامسة والنصف، وقد قرّرت أن انتظر مريم أمام مكتبها. لدي نصف ساعة، ريثمّا تنتهي من دوامها. كان شارع الصالحية، في الجزء الذي يُمنع فيه مرور العربات، مزدحماً بالباعة، والبضائع الرخيصة، فاضطررت إلى الدخول في زقاق يصل الصالحية بشارع الحمراء، وأكملت طريقي صعوداً، نحو الجسر الأبيض. لم تكن مريم موجودة في مكتبها، و لم ترد على هاتفها المحمول. انتابتني كآبة إضافية،إذ باءت خطتي بالفشل. نزلت هبوطاً، فوق الرصيف نفسه، مثل ثعلب فقد طريدته فجأة. سوف تخبرني لاحقاً، أنها كانت خارجة للتو من عيادة طبيب الأسنان، في جرمانا، لحظة انفجار سيارة مفخخة، في ساحة السيوف، وكيف رأت بعينيها أشلاء الضحايا تصعد إلى السماء، وأجساد أخرى مبتورة الأعضاء تُنقل إلى عربات الإسعاف، مثل ذبائح خارجة من المسلخ.

في فجر يوم الخميس، في الحادي والعشرين من آب، نقلت وكالات الأنباء خبر مجزرة جديدة في الغوطة الشرقية المحاذية للعاصمة، كانت حصيلتها نحو 1300 ضحية، قيل أن صاروخين محمّلان بغاز السارين حصدا معظم أهالي قرى الغوطة. خوف وهلع وصراخ. اتجه معظم الأهالي إلى الأقبية، بدلاً من أسطح البنايات، وهو ما أدّى إلى حالات اختناق جماعية. أطفال ونساء فوق رخام مستشفى ميداني، يبصقون سائلاً أبيض بتأثير الغاز الكيميائي القاتل، وآخرون يحاولون إنقاذ الضحايا بأساليب بدائية، جثث مصفوفة بالأكفان، كتفاً إلى كتف، بأسماء مجهولة. رحيل

جماعي لعائلات بأكملها، لم يفاجئها الموت، إذ كانت تغط في النوم، عائلات نُقلت من أسرّتها إلى المقبرة. اتهمت الكتائب المسلحة النظام بارتكاب المجزرة، وأنكر النظام علاقته بها، كما هي عادته، في كل مجزرة، فيما اكتفت الأمم المتحدة بقرار غير مؤثر، من دون إدانة لأحد. من تلك الصور المفزعة، لن تبارحني، صورة فتاة في العاشرة، فتحت عينيها بعد غيبوبة، وخاطبت المسعف: "عمو أنا عايشة؟" إلى هذا الحدّ، أصبح الموت عبثياً، وصارت الحياة مجرد مصادفة. موت بالمجان، موت لأسباب لا قيمة لها، أو لأسباب غير متوقّعة: في صبيحة يوم السبت، في الثالث والعشرين من آب، كانت ثلاث شاحنات بضائع ضخمة تعبر الحدود السورية العراقية، وفي منتصف الطريق الصحراوي، اعترضت القافلة، دورية لأشخاص ملتحين، يرتدون ثياباً أفغانية بلحى شعثاء وبنادق على الأكتاف، طلب أحدهم من السائقين شبه النائمين أن يترجّلوا من شاحناتهم، وإبراز هوياتهم. كان الرجال الثلاثة، وفقاً للاستجواب، من مواليد مدينة طرطوس، يعملون منذ سنوات على خط دمشق- بغداد. أمرهم زعيم العصابة بأن يجيبوا عن سؤال محدّد: ما هو عدد ركعات صلاة الفجر؟ كان السؤال امتحاناً لإسلامهم، وحين تلعثموا في الإجابة، واخطئوا في العدّ، كان الحكم المقرّر عليهم، هو الإعدام الفوري بالرصاص، باعتبارهم كفّاراً يستحقون الموت. أحد الرجال كان يقوم بتصوير المشهد، لكن ما لم يقم بتصويره، هو كيفية اقتسام الغنائم بين رجال الله الصحراويين، ذلك أن أرشيف اليوتيوب، اكتفى بمشهد الإعدام، ثمّ تلاه مشهد راية سوداء تخفق فوق عمامة رجل يهرول فوق الرمال.

مسامرات الموتى

2013/8/27

قبل قليل، انطلقت ثلاث قذائف، بتوقيتٍ واحد، من تخوم جبل قاسيون إلى جهة الشرق. رائحة البارود في الثامنة صباحاً، تصل واضحة إلى الأنف، تلوّث الهواء النقي بسهولة، كما أنها تُربك حركة الطيور والنباتات والستائر الطبيعة ضاقت ذرعاً بمن يتلاعب بجيناتها، وهناك من يؤكد بأن زواحف غير مألوفة بدت تظهر في الأمكنة الملوّثة، بسبب انتشار الجثث في الشوارع والبساتين والمزارع المهجورة، وتراكم أنواع جديدة من كيمياء القتل التي تفتك بالبيئة، منذ نحو ثلاثين شهراً. لا تقارير دقيقة عمّا حدث في الغوطة الشرقية، إثر استعمال صواريخ غاز السارين في إبادة مئات الضحايا. إعلانات الحرب تملأ الشاشات بسيناريوهات هوليودية لإبادة من نوع آخر تقوم بها بارجات وطائرات بلا طيار، وصواريخ عابرة للقارات، وعبارات ثناء وشكر من رجل اخترعته المخابرات السعودية، يردّدها بتلعثمٍ أمام شرفة قصر الاليزيه، لأن الكولونياليين الجدّد وعدوه بأنهم سيغزون بلاده لتحريرها من الطغيان، وإخراج طائر الحرية من القفص. الرجل نفسه بلحيته السعودية المدبّبة، وتاريخه الحافل كمهرّب مخدرات سابق، كان ينهز رأسه موافقاً على ما يسمعه بالفرنسية، من دون أن يفقه شيئاً، لكنه حاول ألا ينسى عبارة مهمة، همس بها أحدهم في أذنه "يجب معاقبة المجرم في محكمة الجنايات الدولية"، في محاولة لتحرير نسخة ثانية من حرب كوسوفو، الحرب التي لم يُقتل فيها جندي أمريكي

واحد، أما الهلع الذي يعيشه السوريون، والدمار الذي سيلحق بهم، والموت الجماعي، في حال أقدم حلف الناتو على عملية عسكرية خاطفة، فهذا ليس وارداً في حساباتهم. قتل إضافي من أجل قتلى، وذرائع تُصنّع في غرف المخابرات، وكأن الموت في الأسلحة العادية، لا يضاهي الموت بالسلاح الكيميائي، رغم أن موتى النوع الأول قد تجاوز عددهم، أكثر من مئة ألف قتيل. أمريكا أيقونة الحرية، تتوعدنا بحرب خاطفة، وجراحة موضعية، لتحسين صورة القتل، ونحن ننتظر موتنا أمام الشاشات بلهفة، وقد فقدنا الصبر بانتظار ساعة الصفر، وفي الوقت المستقطع، بين خبر عاجل وآخر، ننجز مواعيدنا المؤجلة، وكأن شيئاً لن يحدث، نذهب إلى العمل، ونقف في الطوابير أمام الأفران، ونخزّن المعلّبات، ونقرأ الصحف، وإلا ما معنى أن تتصل بي ظهر أمس، صديقة تهتم بكتابة القصص المصوّرة للأطفال كي تسألني عن كتاب نادر، عنوانه "مسامرات الموتى" للوقيانوس السميساطي؟ أجبتها بأنني لم أسمع عن هذا الكتاب قبلاً، ولا أعلم إن كان موجوداً في المكتبات، وإن سمعت عن صاحبه في أحاديث عابرة بوصفه أول كاتب سوري يكتب قصة علمية متخيّلة، وإنه عاش في القرن الثاني الميلادي. أخبرتني بأنها فتّشت عن الكتاب في كل المكتبات، بما فيها مكتبات الرصيف، و لم تجده، وتأمل بأن أجد نسخة من الكتاب لدى أحد أصدقائي. انتقلتْ إليّ حمّى البحث عن هذا الكتاب بإغراء عنوانه المدهش "مسامرات الموتى قلت لنفسي، لعله يتحدّث عنا في هذه اللحظة تحديداً، عن مسامراتنا قبل الموت بقليل، وبات همّ الحصول على نسخة من هذا الكتاب شأناً يخصني أيضاً. اتصلت بمكتبي

قديم، وطمأنني بأن لديه نسخة من الكتاب، وسيحضرها غداً، لكنه عاد وأخبرني بأنه لم يجد النسخة، وأضاف بأنه ربما أعارها لأحدهم، ولم يرجعها إليه، وسوف يحاول التفتيش عنها مرّة أخرى. في هذه الإثناء، وجدتُ في أرشيف غوغل شذرات من حياة لوقيانوس السميساطي، من دون سطرٍ واحد عمّا كتبه في "مسامرات الموتى"، لكن ما هو مكتوب عن حياته ينطوي على شخصية فريدة عاشت حياة حافلة لطالما أتاحت الإمبراطورية الرومانية لأمثاله، في فترة رخائها، فرصة للتجوّال بين تضاريسها الشاسعة، من ضفاف الفرات، مكان ولادته، إلى "إيونيا" على البحر الأبيض المتوسط، أو بحر الروم، كما كان اسمه وقتذاك.

لم تعجبه مهنة النحت وصناعة التماثيل، المهنة التي اختارها له والده، إذ هجرها بعد أن كسر إحدى قطع الرخام بضربة أزميل قوية، واتجه إلى دراسة الفلسفة، وحفظ أشعار هوميروس، وقرأ نصوص أوربيد، وأرستوفان، وديموستين، ودرس القانون الروماني، ثمّ استقرَّ في أنطاكية، ثمّ هجرها إلى أثينا، ومنها انتقل إلى روما، ثمّ إلى بلاد الغال، ثمّ عاد إلى سميساط على الفرات، قبل أن يهاجر مرّة أخرى إلى أثينا. عدا كتاب "مسامرات الموتى وهو رحلة إلى الجحيم يستدعي فيها آلهة وقادة وفلاسفة وملوك من كل العصور في محاورات فلسفية ساخرة، على غرار ما سيفعله لاحقاً، أبو العلاء المعري في "رسالة الغفران"، ودانتي في "الكوميديا الإلهية"، أودع رفوف المكتبة اليونانية نحو ثمّانين كتاباً، في التاريخ والفلسفة والبلاغة والخطابة، أما روايته اليتيمة "قصة حقيقية" فقد كانت أول رواية في العالم عن رجل يطير إلى القمر ويسافر بين النجوم، ويصف مخلوقات وكائنات

على الكواكب الأخرى. حدث كل ذلك قبل ألف وتسعمائة سنة، وهذا ما جعلني أفتّش عن كل ما يتعلّق بحياة ومؤلفات لوقيانوس السيميساطي، كواحد من أسلافي العظام، من دون أن أعرف إلى هذه اللحظة، ما حاجة صديقتي للكتاب، ومتناسياً، في الوقت نفسه، نشرات الأخبار التي كانت تُنذر بحرب وشيكة، وجحيم غير مسبوق، وخرائط قيد التفكك.

سأكتشف في جولة بحث لاحقة، أن لوقيانوس السيميساطي، شهد خلال فترة من حياته حرباً في بلاده، شبيهة بالحرب التي نعيشها اليوم، وهو ما قاده إلى إنجاز كتابه "كيف تكتب التاريخ"، أشار فيه إلى الخدع التي يلجأ إليها المؤرخون في تزوير الحقائق، لافتاً إلى عدم الإنصات إلى الوشاية، في هجاء قاسٍ للرذائل والعيوب والعقائد والأباطيل، كما تهكّم من هوميروس وتناقضاته في وصف حروب طروادة، وسخر أيضاً من الأديان الإغريقية القديمة، وخلّص الأسطورة من الآلهة لمصلحة البشر في حكايات عن الحرب والإذلال والعزلة، حكايات نعيد تكرارها منذ تسعة عشر قرناً، وكأنها لم تحدث أبداً. سوف يخبرني المكتبي في مكالمة أخرى، بأنه فقد أثر كتاب "مسامرات الموتى"، إذ تذكّر بأنه أعار هذا الكتاب إلى صديق، كان يقطن في ضاحية قدسيا، وقد هجر بيته إثر تهديد تلقاه من جماعة مسلّحة، وغادر البلاد إلى إسبانيا، على عجلٍ، قبل أن يُنهب بيته، في إحدى الغزوات، ولا شك أن الكتاب قد ضاع بين المسروقات.

في المقهى، كنت أشرح لمريم تفاصيل بنية أجسام المحاربين القدامى، في زمن لوقيانوس السميساطي، استناداً إلى الأحجام الضخمة للأعضاء

في تماثيل ولوحات تلك الحقبة، بالمقارنة مع محاربي اليوم، هؤلاء الذين يجلسون في غرف الكونترول المغلقة أمام خرائط لأهداف على بعد آلاف الأميال، وبضغطة زر واحدة، تذهب القذيفة إلى هدفها مباشرة، وفي الوقت الذي يموت فيه مئات البشر، يرفع المحارب الأوتوماتيكي يده بإشارة النصر. كانت مريم مشغولة بلون طلاء أصابع يديها، وهل يتناسب اللون البرتقالي للإصبع الوسطى مع اللون الأخضر الفاتح لبقية الأصابع؟ تجاهلتُ ملاحظتها، وحاولت أن أكمل فكرتي، لكنها لم تكترث لما كنت أقوله بجديّة، في وصف صاروخ "توما هوك" وقدرته على التدمير، إنما مدّت ساقيها أمامي، وسألتني رأيي بالطلاء الذي يزيّن أصابع قدميها. قلتُ لها بنوع من التأنيب: أمس كانت مريم أخرى تحت القصف في معلولا، وكان القديسون يردّدون صلواتهم بالآرامية لحماية مريم العذراء من موت محقّق. عند هذا الحدّ، التقطت (مريمي) الفكرة، وقالت بإغواء "وأنا أيضاً، هناك من يصلّي لأجلي، من دون وضوء، في العمل، والشارع، والمقاهي والحانات، وعلى الفيس بوك أيضاً"، وأضافت وهي ترشف قهوتها "هل لدى مريم العذراء صفحة على الفيس بوك؟"

نادل المقهى قلق من الحرب أيضاً. كان يقرأ شريط الأخبار العاجلة على الشاشة، وهو يحمل صينية القهوة، وكاد أن يدلق محتوياتها فوق رأس جنرال متقاعد، بسبب اضطرابه، فقد كان الشريط يشير إلى احتمال اقتراب الضربة العسكرية الأمريكية. قال بصوت مضطرب بما معناه "أين المفرّ؟"، ثمّ راح يعدّد البيوت التي هجرها، طوال سبعمائة يوم من الحرب، وأعاد قصة اختفاء ابنه، منذ شهور، من دون أن يتمكّن من معرفة مكانه،

أو عنوان الجهة التي اختطفته، وأسباب خطفه، فقد أنكرت الجهات الأمنية التي تمكن من مخاطبتها من طريق بعض رواد المقهى، علمها بوجود شخص باسم شكري نصر الدين، وهذا ما أثار فزع النادل، ففي المقهى، لطالما سمع عن حكايات اختفاء مشابهة، مات أصحابها تحت التعذيب، ودُفنوا سرّاً، في مقابر مجهولة، لكن النادل كان يخترع كل يوم أسباباً للأمل، وبأن ابنه مازال على قيد الحياة، فهناك معتقلون عادوا إلى الحياة، بعد سنة من اختفائهم، وفي أحيانٍ أخرى، كان يقنع نفسه بأن ابنه قد انضمّ سرّاً، إلى إحدى كتائب المعارضة، وسيعود، بمجرد أن ينتهي الصراع الدموي بين الجيش والكتائب المسلّحة، لهذه الأسباب رفض وضع صورة مكبّرة لابنه شكري في البيت الذي استأجره، خشية أن تكون بديلاً أزلياً للأصل المفقود مؤقتاً.

فوق أرضٍ محتضرة

2013 /9 /12

أيلول، مرّة أخرى، تحت سماء غائمة، وفوق أرض مُحتَضرة، من دون جردة حساب. لم أعد مهتماً بإحصاء الأيام والأسابيع والفصول، وحتى التمرينات على إلغاء أسماء الموتى والغائبين من مفكرة هاتفي النقّال، اكتفي بإقناع نفسي بأنهم خارج التغطية وحسب، أو إنهم لا ينصتون إلى رنين الهاتف، بسبب مشاغل طارئة، وسيعاودون الاتصال، في وقتٍ لاحق، لكن ما أنا متأكد منه تماماً، هو أن كل ما يحيط بي يحتضر.

استيقظتُ صباحاً على نبتة ريحان ذابلة في الشرفة. لا رائحة للريحان، لا طعم للقهوة، لا نكهة للسجائر، لا نشوة للجسد، فأنا مثل مريض يتغذى على السيروم، في مستشفى حكومي قذر ومهمل. أمس اقتحم المقهى رجل برفقة شاب يحمل مبّولة يتدّلى منها أنبوب بلاستيكي مربوط بأسفل بطن الرجل المريض. جلس أمام الواجهة الزجاجية للمقهى، يتأمل وجوه المارين على الرصيف، وكأنه يودّع ما تبقى من أيامه، غير عابئ بالضجيج ورائحة التبغ وصوت سيارات الإسعاف. شرب كوباً من الشاي الثقيل، ومضى برفقة الشاب وعدّة البول الاصطناعي.

أمس، أثار انتباهي ازدياد عدد معاقي الحرب، في المقاهي والشوارع والعربات المخصّصة لذوي الاحتياجات الخاصة. يعبر ممرّ المقهى رجل بساق واحدة، يستند إلى كرسي الخيزران، ثمّ يسند عكازه إلى الكرسي، ويرتّم جلسته بنارجيلة على الجهة الأخرى من الطاولة. لا أحد يعلم كيف فقد ساقه المبتورة، هل فقدها بلُغم أم بشظية، أم بحادث تفجير حافلة؟ بالمناسبة، أين تُدفن ساق مقطوعة، وهل يزورها صاحبها بين فترةٍ وأخرى، كي يضع الزهور فوق القبر، وفي حال موته، هل سيمتلك قبرين؟ وهل للساق السليمة ذكريات حزينة لفقدان الساق الأخرى؟ كان صديقي يضحك بصوت عال، و لم يجد إجابة شافية عن أسئلتي. اكتفى بحركة من يده لماسح الأحذية الذي كان يتجوّل بين طاولات المقهى، ومدّ قدمه ببهجة فوق الصندوق، وغرق بتأمل الطلاء الأسود اللامع فوق حذاء مازال صالحاً للمشي، وبقدمين سليمتين، لم تمسسهما المتفجّرات. بهذه الحماسة والعبث والأسى، ذهبنا إلى حي باب توما، لحضور أمسية لشعراء هواة، في

الرابعة عصراً. منذ أشهر لم أذهب إلى هناك. كانت الشوارع تحتضر تحت صلابة حواجز الكونكريت، وصلافة أصحاب البزّات المرقّطة، وقذارة الأرصفة، والشعارات المكتوبة بخطوط حمر عرجاء على أسوار مقبرة الدحداح، وجدران غرف الحراسة. من نافذة التاكسي، أتأمل الشعارات المكتوبة بضجر وخوف، التاكسي التي بدأت وكأنها معطّلة منذ قرن، تحت شمس الظهيرة، ريثمّا يُسمح لنا بالعبور. ليست هذه شوارع باب توما التي أعرف. كان الغبار يغطي واجهات الدكاكين، وأشجار الحدائق، ومحطة البنزين، والأدراج الحجرية العتيقة، والنباتات المتدلّية من شرفات البيوت، ووجوه العابرين. قذائف الهاون أطاحت طمأنينة الأزقة القديمة، فيما كان على سائق التاكسي أن يكتشف مسارب ملتوية ليعبر ساحة باب توما نحو قوس باب شرقي.

في حانة نينار المجاورة لفناء كنيسة، كنتُ أنصت إلى حمحمة خيول، ورائحة زعفران، وصخب قوافل تجّار حرير وتمور وتوابل، كانوا يودعون خيولهم وجمالهم في هذا الإسطبل، قبل أن يغامر مهندس معماري ماهر بتحويل المكان المهمل، منذ عقود، إلى حانة صاخبة، وفضاء لشعراء ضالين، ينتهكون اللغة، وآخرين يحطّمون قواعد النحو والصرف بشجاعة الجهل وحدها. ها هنا تحتضر اللغة والمخيّلة والعتبات، ليندحر زمن القديسين الذين ظلّلت أرواحهم سكينة هذه الأرض، منذ أكثر من ألفي عام. اللغة تحتضر على مهل مثل بعير يلوك اليأس والضجر والنباتات الشوكيّة إلى الأبد. أربعاء خمر وشعر في نينار، آخر طوق للنجاة من الغرق في لجّة العنف والكراهية والاحتضار. أينما توجهتَ ستجد أرضاً محتضرة، الأرض

التي كانت ذات يوم، بستاناً للبهجة، وللعشاق الثمّلين بكامل حواسهم، وهم يتسكعون في متاهات الأزقة، آخر الليل. كانت المغنيّة الشابة تصدح بأغنية "سليمى لزكية حمدان، بصوت ثمّل، لما تبقّى من رواد الحانة، وكأنها تستدعي زمناً آفلاً، وغراميات لم تعد متاحة، بالشغف نفسه. سوف تروي بالثمّل نفسه، خيباتها العاطفية، وذبول جسدها، وخوفها، وسوف تقرأ من دفتر أخرجته من حقيبتها، شذرات من أشواقها لرجل لم يعد موجوداً، بعد أن غيّبه الموت بقذيفة في إحدى نوبات القصف على الضواحي، وسوف تحني رأسها فوق كتفي، وتذهب في نحيب طويل. نخترق الأزقة الضيّقة إلى حي القيمرية. تشير بيدها إلى نافذة معتمة لغرفة معلّقة فوق سطح بناء قديم، وتقول "هناك أدفنُ آلامي وآثامي وعويلي كل ليلة" أودّعها بعناق خاطف، وأمضي. أحاول الإنصات إلى ضجيج الأنوال في ورشات البروكار، الورشات التي كانت تشغل معظم بيوت القيمرية القديمة، قبل أن تقع حوادث عام 1860، تلك الفتنة الطائفية التي أيقظت حروباً دينية طاحنة، فيما كانت القنصلية الفرنسية بالتواطؤ مع والي دمشق العثمّاني أحمد باشا، تضمر أمراً آخر، هو احتكار الحرير لزوم النهضة الصناعية في أوربا، وكانت دمشق مركزاً حيوياً لصناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة، في الوقت الذي كانت صناعة الحرير تحتضر في فرنسا، نتيجة آفة أصابت دودة الحرير، ليس في فرنسا وحدها، وإنما في الصين التي كانت تورّد كميات كبيرة من الحرير الصيني إليها، فكان على دمشق أن تخرج من مشهد السوق العالمي للحرير، وذلك بالتخطيط لمذابح دينية تمتد من بيروت إلى دمشق، فرُصدت الميزانيات الضخمة لسيناريو

المذابح، وذلك بالاعتماد على الغوغاء وتجّار الدم لإثارة الهلع بين الأهالي. وصلت الحملة العسكرية الفرنسية إلى بيروت بمهمة أساسية هي نقل الفلاحين اللبنانيين الذين يربّون دود القز، في بوارج فرنسية إلى الجزائر، على أن تؤمن الحكومة الفرنسية لهم الأراضي الزراعية الخصبة، وتوريد منتجاتهم من الحرير إلى الموانئ الفرنسية، بذريعة حماية المسيحيين، وكان الرد قاطعاً، وهو الرفض، وهذا ما جعل الفرنسيين يستهدفون ورشات صناعة الحرير في دمشق، وإحراق بيوت ومشاغل الحرفيين لتهجيرهم إلى بيروت، واغتيال تجّار الحرير الكبار في بيروت ودمشق. كنتُ انحدر في الأزقة الحجرية نحو ساحة باب توما برفقة صورة متخيّلة لذلك الحائك الدمشقي الذي صنع ثوب عرس ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية من الحرير الطبيعي، ورسماً لعصفورين متعانقين فوق القماش الأبيض، أو ما كان يسمى العاشق والمعشوق، أو نقش الملكة، وكان إيقاع النول اليدوي يتردّد في سمعي طوال الطريق.

إيقاع أنوال الحرير يخفت تدريجياً، لتحلّ مكانه، صورة جندي بائس، أسره تنظيم القاعدة، في قرية كفرغان، بالقرب من حلب. الصورة كانت غلافاً لمجلة "التايم" الأمريكية، التقطها مراسل المجلة باتريك ويتي، لعملية ذبح جندي، تُذكّر بطقوس القرابين القديمة، ووحشيّة القرون الوسطى، فوفقاً لتقرير المراسل الأمريكي، فإن عناصر تنظيم القاعدة قاموا بدعوة أهالي القرية للفرجة على عملية الذبح، وقد احتشدوا في دائرة، لحظة إحضار الجندي الذي كان معصوب العينين. أجبروه على الجلوس على ركبتيه، وكان خائفاً ومتوتّراً وحافياً "في لحظة ذبحه أمسك

المتمردون بحنجرته، وضعوا الشاب بطريقة مائلة، وأمسكه ثلاثة أو أربعة متمردين، وكأنه طريدة، ثمّ أخذوا يشبكون يديه وقدميه، حاول الرجل حماية رقبته بيديه، حاول أن يقاوم، ولكنهم كانوا أقوى منه، رفعوا رأسه في الهواء، ولوّح الحضور بأسلحتهم وهلّلوا، ثمّ نحروا حنجرة الرجل بخنجر مرعب"

في زقاق معتم آخر، بجانب محل لبيع عدّة الصيد، كنتُ أقوم بتظهير صورة المصوّر الفرنسي– الأمريكي جوناتان البيري الذي تمّ إطلاق سراحه، بعد واحد وثمّانين يوماً، من اختطافه على يد مجموعة مسلّحة عند حاجز بالقرب من بلدة رنكوس في ريف دمشق. اكتشف المصوّر بأن المترجم الذي كان يرافقه قد باعه لمصلحة هذه المجموعة المتطرّفة. أخبره زعيم المجموعة بأنه سيُعدم قريباً، بتهمة العمالة لوكالة الاستخبارات الأمريكية، ورغم نفيه التهمة بشدّة، إلا أنه، طوال خمسة أسابيع، ظلّ مكبّل اليدين ومعصوب العينين، ومقيّداً إلى سرير، قبل أن يتمّ نقله إلى بيت آخر، في مزرعة خلوية استولوا عليها بقوة السلاح. قيّدوه إلى نافذة، ثُمّ سمحوا له بالتنزّه حول بركة السباحة الفارغة. أخبرهم بأنه بطل سباحة، فملأوا البركة بالماء، وطلبوا منه تعليم زعيمهم السباحة "كان كالطفل المذعور، فيما كان المسلحون يضحكون لأنهم يرون قائدهم في لحظة ضعف" يستعيد جوناتان البيري تلك الصور المفزعة التي لم يتمكن من تصويرها، بل عاشها شخصياً بمرارة لا توصف "عندما تشعر بالكراهية ستقوم بحماقات، لذلك أرغمت نفسي على بناء صداقة معهم، ومشاركتهم حياتهم، فكنتُ أصلّي معهم، وأشاركهم العمل في المطبخ، وكنتُ أتوقّع

الموت من جرّاء القصف المتواصل، ورغم ذلك، كنتُ أفضلّه على الذبح، فهم ذبحوا في الغرفة المجاورة أربعة أشخاص من الشبّيحة، بعد تعذيبهم. كان ذلك فظيعا. كانوا يفلتون الكلاب عليهم، طوال أسبوع، وكنت أسمع صراخهم، ثمّ ساد الصمت تماماً، وحين سألتهم عن هؤلاء الأسرى، أجابني أحدهم بهدوء، وهو يلوّح بمقبض سكين: لقد ذبحناهم"

ليل خريفي غامض وملطّخ بكآبة مزمنة، وأيلول مثقل بالعار، ومتاهات لا تقود إلا إلى الجحيم، في كوميديا إلهية، من صنف فريد، ومحاكمات رومانية يقودها عميان أضاعوا كتابهم المقدّس في كهفٍ معتم، واكتفوا بفتاوى الجنون، وشهوة القتل. حطام بشر، ليس لديهم ما يفعلونه سوى أنهم يحتضرون في رمال متحرّكة.

بجوار حاجزٍ للأمن، عند مدخل شارع بغداد، أعبرُ الرصيف مرتاباً، استنجدُ بشهاب الدين أحمد البديري الحلّاق، مرّة أخرى، فهو يورد في خاتمة كتابه "حوادث دمشق اليومية" جملة سحرية تختزل ما نكابده اليوم ببلاغة نادرة، حين يقول "فقد ضاقت الأنفاس، والأشياء زادت عن القياس، والباشا ومن حوله يجمعون المال في الأكياس"، وكأن دمشق لم تغادر القرن الثامن عشر بوصةً واحدة، أو إنها تكتب حفريات الطغيان بأشكال مختلفة، بالخط الكوفي مرّة، وبالخط الفارسي مرّة، وبالخط العثماني مرّة، لكن صورة الطغيان هي نفسها، بالأنياب الحادة، والمخالب الطويلة، وشهوة الافتراس، تحرث الأجساد والأرواح والأمكنة، وتنشر الطاعون والكراهية والضغينة في النفوس. لا شعار للحظة غير "تمجيد الطاعة"، والعواء المكتوم، وانتظار فرج لا يأتي.

فرناندو دي أراندا وسيراميك المراحيض

2013 / 9 /29

كانت ورشة من العمال المياومين منهمكة بطلاء حواجز الكونكريت، بألوان العلم الرسمي، فيما تجاهل مقاولو الجسور والأنفاق طلاء الجدران الداخلية والأسوار، منذ سنواتٍ طويلة، أو اكتفوا بإلصاق طبقة من السيراميك الرخيص، في صفقاتٍ مشبوهة تجري في أروقة البلديات. ما أن تنزلق العربة إلى جوف أحد هذه الأنفاق حتى يغزوك شعور بأنك ذاهب إلى مرحاضٍ عمومي، وسوف تنتقل ثقافة سيراميك المراحيض من الأنفاق إلى بعضٍ الفنادق والمؤسسات، ثمّ تلك العشوائيات المبنية على عجل بإسمنت من دون طلاء، ثمّ شيخوخة بيوت الطين، وسط الأبراج الزجاجية، وفوضى الخشب مع الألمنيوم والحديد والتوتياء، ثمّ العمارة الكولونيالية التي تتفرّد بتناغمها الجمالي، قبل أن تخترقها عمارة حديثة لا تتناغم مع الفضاء المعماري القديم، الفضاء البديع لمحطة الحجاز، وبناء مياه عين الفيجة، وبناء القصر العدلي، في شارع النصر، أو كما يخبرني المهندس المعماري حكمت شطا بألم "دمشق الحديثة تغتصب دمشق القديمة"، محاولاً اختزال ما آلت إليه المدينة العريقة تحت وطأة التلوّث البصري والإهمال الرسمي للنسيج العمراني، وجشع المقاولين الجدد في انتهاك روح الحجارة على هيئة مطاعم وحانات ومقاهٍ، وإذا بمدينة المآذن تتحوّل إلى مدينة المداخن. نعبر فناء الجامع الأموي، الجامع الذي بُني فوق كنيسة يوحنا المعمدان، الكنيسة التي بُنيت فوق معبد جوبيتر الدمشقي.

يتأمل حكمت شطا هندسة الجامع، ثمّ يقول "ينتابني إحساس بأن هندسة الجامع الأموي، تستفيد من خصائص الكاتدرائية، وهذه الثنائية تلقي بظلالها على معالم أثرية عدّة، وكأنها انعكاس لنمط الحياة في هذه المدينة التي تشرّبت تاريخياً ثقافات مختلفة ومتجاورة"

نتوغّل في الحارات القديمة، ثمّ ننعطف في زقاق ضيّق، يشير إلى بيوت شبه مهدّمة "لقد استُبيح هذا الحيّ، وذهبت ذاكرته مع ترحيل الأنقاض، وما أراه وألمسه كل يوم، هو حالة احتضار وعفن وتكلّس، كأننا إزاء مريض لا أمل من شفائه، فأنا على يقين بأن البلاد ذاهبة إلى هاوية" يقول. كان حكمت شطا قد هجر شقته الحديثة في دمشق، وانتقل إلى المدينة القديمة، في هجرة معاكسة. البيت الذي يعود بناؤه إلى القرن التاسع عشر تحوّل بعد ترميمه إلى تحفة معمارية، وسط حارة "طالع الفضة"، لكن غزو المطاعم والمقاهي إلى الحارة، خلخل نسيجها السكاني المتعدد "البيوت التي كانت تضخ الأوكسجين وروائح الياسمين، أصبحت تضخ ثاني أوكسيد الكربون ورائحة التنباك المعسل يقول.

هذه المرّة يشير إلى التوربينات والشفاطات وأجهزة الإنارة بوصفها تلوّثاً بصرياً وسمعياً ورئوياً لا يحتمل. لا يتردد حكمت شطا في وصف دمشق بأنّها سليلة الكوارث خلال تاريخها الطويل، منذ اجتياح تيمورلنك المدينة قبل قرون، مروراً بالهزّات الأرضية التي أصابتها، وصولاً إلى قصف المدافع الفرنسية لأجمل بيوتها خلال فترة الاحتلال، ومخطط المهندس الفرنسي ميشال ايكوشار للمدينة القديمة، وانتهاء بما تعيشه اليوم من

أمراض عمرانية، من دون اهتمام بحماية تراث المدينة. في جنته الصغيرة، اكتشفَ لغز أسلافه لجهة استثمّار الظل والنور وسحر الفضاء الداخلي، فعمارة البيت الدمشقي تتمثل في أرض دياره، كونها تحتوي كل مكونات الحديقة الداخلية (نبات وتراب وماء وهواء)، وكأنها استكمال للخضرة الخارجية في غوطتها المحيطة بسور المدينة، قبل أن تتحوّل مدينة العطور والطيور إلى مدينة التصحّر والغبار.

في ساحة المرجة، قبالة نصب الشهداء، سوف يرافقني طيف فرناندو دي أراندا، وأنا أتأمل تحفة معمارية حملت بصمة هذا المعمار الإسباني الذي ترك توقيعه على أبرز عمائر دمشق، من محطة الحجاز، إلى جامعة دمشق القديمة، مروراً بمبنى السراي الحكومي، إلى بناية أحمد باشا العابد التي أقف أمامها الآن، وحتى فندق زنوبيا في تدمر

فرناندو دي أراندا الذي يرقد اليوم في مقبرة باب الصغير، وهي مقبرة إسلامية قديمة، ولد في مدريد، أواخر القرن التاسع عشر، وماتت أمه بعد فترة قصيرة من ولادته، فرافق أباه الموسيقار منذ كان طفلاً، إلى باريس، ومنها إلى استانبول. وحين وصل إلى دمشق شغف بطقوسها وهوائها وجمال نسائها، دمشق التي كانت إلى جانب مدن الشرق الأخرى مقصداً لرحلات المستشرقين الرومانسيين منذ القرن التاسع عشر. في دمشق تزوّج أراندا من امرأة سورية تدعى صبرية حلمي، وكانت تصغره بعشرين عاماً، وقد رحل معها إلى حيفا واعتنق الدين الإسلامي، قبل أن يعود إلى دمشق ليكمل فيها بقية أعوامه التي زادت على التسعين، وقد أنهى حياته في

الغرفة 203 في المستشفى الطلياني، تحت أيقونة لمريم العذراء (!).

العمارة التي تطل على ساحة المرجة مبنية على الطراز الأوروبي، وقد صُممت كي تكون فندقاً حديثاً، قبل أن تتحوّل إلى ثكنة عسكرية خلال الحرب العالمية الأولى للجيوش العثمّانية، ثمّ صارت مقرّاً للبرلمان السوري الأول في العام 1919، ومن شرفتها لوّح الأمير فيصل الأول لحشود مستقبليه، ثمّ مقرّاً للجنرال الفرنسي هنري غورو في العام 1920، ثمّ مجمّعاً لمكاتب محاماة، وعيادات طبية، ومراكز تجارية. لا تشبه دمشق اليوم صورتها القديمة المشرقة، فعدا النكبات المتلاحقة التي أصابتها، قرناً إثر قرن، على أيدي الغزاة، وضع عسكريو الانقلابات المتلاحقة بصماتهم الثقيلة على عمارتها، في إنشاء بيوت ضيّقة ومتلاصقة تشبه الثكنات العسكرية، وكأن هذه المدينة لم تشهد ولادة أبو لودور الدمشقي، أعظم معمار في العالم القديم، شاعر العمارة الشرقية الذي غادر دمشق في نهاية القرن الأول الميلادي إلى روما، حاملاً روح العمارة المحليّة إلى عاصمة الإمبراطورية، والتي لا تزال حتى اليوم تشهد على عبقريته المعمارية الفذّة. لماذا إذاً، لم نعر اهتماماً لهذا الجسد المريض؟ الجسد الذي كان يحتضر على مهل منذ عقود، في استغاثات متعاقبة، من دون أن يغيثه أحد، وكيف امتدت كل هذه العشوائيات في محيط المدينة، والتهمت بساتين التوت والمشمش واللوز، وكيف نبتت كل هذه الصناديق مسبقة الصنع عند تخوم الجبال، وكيف يُبنى مستشفى بجوار كراج للحافلات، وكيف اختفى الترومواي من الشوارع الحجريّة، وكيف تحوّلت الملاجئ إلى ورشات للخياطة، وبيوت سريّة للدعارة، وكيف تحوّلت المكتبات إلى

مطاعم للوجبات السريعة، ودكاكين للأحذية؟ وكيف تحوّلت الحدائق العامة إلى عقارات خاصة بأسماء أشخاص متنفذين؟ لم يقرع أحد جرس الخطر، ولم يدقّ أحد جدران الخزّان، فاختنقت أقدم مدينة مأهولة في العالم بالعفن والطاعون والحرائق. ولكن هل كان قدر دمشق أن تكون منذورة للحرائق طوال تاريخها؟ ربما كي تغتسل من بثورها، وتنهض مرّة أخرى بكامل شهوتها للحياة.

هكذا "أقامت النار ثلاثة أيام كاملة واحترقت غالبية معالم دمشق ومنازلها، وصارت مدينة أشباح، وحصل بها جراد عظيم بعد خروج تيمورلنك منها فزادت خراباً على خراب" (عجائب المقدور في أخبار تيمور– ابن عرب شاه).

"ثمّ أطلق تيمورلنك أيدي النهّابة على بيوت المدينة، فاستوعبوا أناسيها وأمتعتها وأضرموا النار فيما بقي من سقط الأقمشة، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعّمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه وتهدّمت سقفه وحوائطه، وكان أمراً بالغاً مبالغة في الشناعة والقبح" (التعريف– ابن خلدون).

"في ساعة مبكّرة من صبيحة 18 تشرين الأول 1925، دخل 400 ثائر إلى دمشق عبر منطقة الميدان تحت إمرة حسن الخراط، ومحمود سلام، وأبي عبده ديب، كما اخترقت المدينة أيضاً مجموعة مؤلفة من الخيّالة المسلّحين بزعامة رمضان شلش عبر منطقة الشاغور.

اتّجهت المجموعتان نحو قصر العظم، حيث مقر الجنرال موريس سراي

المفوّض السامي الفرنسي الجديد ولقد حظيت المجموعتان بترحيب حار من التجار والسكان عند مرورهما في المدينة. اشتبك الثوار فور وصولهم مع حامية قصر العظم، وعلى الرغم من سلامة الجنرال سراي غير أن الثوّار اقتحموا مقرّه، وقاموا بتحطيمه فسارع الفرنسيون بإرسال تعزيزات إلى قواتهم في المدينة القديمة وفرضوا طوقاً أمنياً عليها. ليقتحموا سوق الحميدية؛ أحاط المقاتلون السوريون بالفرنسيين من كلتا الجهتين، وبعد دخولهم، أصبح من المستحيل عليهم التراجع. وتعذر على الدبابات دخول الشوارع الضيقة، انسحبت القوات الفرنسية عند الساعة الرابعة من المدينة القديمة وبدأت المدافع من قلعة المزة تصب حممها على المنطقة الجنوبية من دمشق. بدأ الحريق بقذيفة أولى أطلقت من مدفع لتدمّر قبة حمّام الملكة لتشتعل النيران ولتمتد إلى البيوت والمتاجر المجاورة وتلتهم فرن جبران وزقاق المبلط الواقع وراء سوق الحميدية، ثمّ زقاق سيدي عامود، وبعضاً من سوق مدحت باشا" (دمشق تاريخ وصور– قتيبة الشهابي).

ولكن ماذا بخصوص الحريق الداخلي للبشر؟ الحريق اللامرئي، الحريق الذي يشتعل في الأكباد، أكباد الأمهات لحظة تلقيهنَ خبر مقتل أحد الأبناء في كمين، أو عند حاجزٍ عسكري، أو في معركة عبثية تدور بين أطراف مجهولة، وماذا عن حرائق الرجال، لحظة إهدار كرامتهم في غرف التعذيب، أو في مراكز الهيئات الشرعية، الهيئات التي تجري محاكمات مرتجلة للمطلوبين لديها، محاكمات تنتهي بالجلد أو القتل بالسيف، أو الاغتصاب. حادثة قتل أب لابنته العشرينية، في إحدى قرى الشمال،

هي واحدة من الحوادث التي لا تحصى في قائمة البربرية الجديدة. في تلك الليلة بوغت الأب العجوز بعصابة من أصحاب اللحى تقتحم بيته. كان لدى زعيم العصابة مطلب محدّد، هو اصطحاب الفتاة معهم، بناء على رغبة أمير الجماعة الزواج منها. لم يثنهم رجاء الأب بالتخلي عن مطلبهم، وحين فقد الأمل، طلب منهم أن ينتظروا في الخارج، كي تبدّل ابنته ثيابها، وبعد دقائق خرج إليهم حاملاً سكيناً تقطر دماً، وأشار إليهم بأن ابنته بانتظارهم، وحين دخل زعيمهم الغرفة، وجد عروس الأمير قد فارقت الحياة بعشر طعنات في عنقها.

هزيم، أو صوت الرعد، كما يعرّف نفسه ساخراً، لديه حكاية مختلفة، لكنها لا تقلّ مرارةً عن حوادث تجري كل يوم، إذ تمّ اعتقاله مدة تسعين يوماً، بتهمة فانتازية عنوانها (استضراط)عناصر الحاجز، بسبب تأخره في إبراز بطاقته الشخصية عند الحاجز العسكري (اضرطَ به: استخف به وسخر منه– لسان العرب): "بعد تعذيبي بوحشية، وتكسير أصابع يدي اليمنى وضعوا بسطاراً عسكرياً على الطاولة، وطلبوا مني أن أقبّله حتى يطلبوا مني التوقّف، وفعلت ذلك لثلاث ساعات متواصلة، كنت عارياً تماماً، ثمّ سمحوا لي بارتداء سروالي الداخلي، قبل أن يقودني أحدهم إلى زنزانة تسمى الشَّبك، كانت رائحتها كريهة جداً، وكنت فقط بحاجة للنوم لأهرب من خوفي وآلام جسدي. كان الوقت ليلاً، وجدت مكاناً بين السجناء يتسع لي، وضعت رأسي على البلاط البارد ملتصقاً بأحد السجناء، كان جسده بارداً كالثلج، ولم يبد أي انزعاج أو حركة احتجاج. غفوت كما لو إنني في غيبوبة، وحين صحوت في اليوم الثاني،

رحت أحدّق بوجوه الحاضرين وأجسادهم التي تنز دماً وقيحاً، كنت أنا أكثرهم خوفاً ورعباً وفزعاً، أحدهم وكان وجهه مشوهاً وضائع الملامح همس لي: لا تعد للنوم بين هؤلاء الأشخاص كي لا تمرض فهم أموات منذ ثلاثة أيام. أموات؟ نعم أموات، و لم يأت دورهم في الترحيل بعد"

الآن، الآن فقط، أدركُ لماذا كتب فاتح المدرّس عند باب مرسمه في ساحة النجمة، عبارة "هولاكو مرَّ من هنا. ابتسم وقرأ الفاتحة"؟

العــار

2013/10/13

صوت الميكرفون في سيارة دفن الموتى، يؤكد موت أحدهم هذا الصباح، من دون أن يعدّد مناقب الفقيد. اكتفى ببعض الأدعية التي تبشره بالجنّة. موت عادي لم يثر أحداً في الشارع، حتى أن جارتي الأرمنية، لم تتوقف للحظة، عن نشر غسيلها في الشرفة المقابلة، فيما كان شريط الأخبار على الشاشة، يراكم موتى آخرين فوق قائمة الأمس، ولكن، هذه المرّة، من طريق غرق سفينة، كانت تنقل مهاجرين سوريين وفلسطينيين غير شرعيين، قبالة شواطئ الإسكندرية. موت غير شائع في قاموس السوريين، منذ زمن السفر برلك، فهم اعتادوا الموت قنصاً، والموت ذبحاً، والموت تحت التعذيب، والموت شنقاً، والموت بقذيفة هاون، والموت بتفجير سيارة مفخخة، وهاهم يجرّبون فتنة الموت غرقاً، كأنهم يعيدون ما كابده

أسلافهم، قبل قرنٍ تماماً. وصفة كاملة لمعنى العار، أو الخزي، أو الهوان.

العار! هذا ما أحسُّ به الآن، وقد اكتملت صورته تماماً. ليس هناك ما يدعو إلى الفخر في هذا المستنقع، أم المسلخ؟ ذبائح معلّقة بكلّابات، وأخرى تنتظر دورها في الذبح، في صور وحكايات حيّة عابرة للحدود، العار بنسخة جديدة مضافة إلى ما كتبه في هذا الباب، فاتح المدرس، وسلمان رشدي، وج. م كويتزي، وما كتبته تسليمة نسرين أيضاً. العار باسمه الصريح، العار عارياً، من دون زخرفة، العار ملطّخاً بالإثم. في مخيّم اليرموك الفلسطيني المحاصر منذ تسعين يوماً، اكتملت أسباب المجاعة. في صبيحة هذا اليوم صعد إمام جامع فلسطين إلى المئذنة، خارج أوقات الصلاة، وبعد تردّد، حسم أمره، وأعلن بصوته المتعب فتوى بجواز أكل لحم القطط والكلاب والحمير للمحاصرين في المخيّم، بعد أن بلغوا مرحلة قد تودي بهم إلى الهلاك جوعاً.

المخيّم خزّان الألم والتعب والشتات، يلفظ أهله مرغماً، تحت وطأة الحصار والموت ووجع الذاكرة الأولى. هذه المرّة، لم يتمكّن النازحون من أن يحملوا مفاتيح بيوتهم، أو ألبومات الصور، أو خرائط فلسطين المصنوعة من الخرز، الخرائط المعلّقة على جدران البيوت مثل تميمة مقدّسة. هجّوا قبل الموت الجماعي بقليل، من دون أن يلتفتوا إلى الوراء، فيما كان القتلة يتوزعون الغنائم، أما أولئك الذين لم يجدوا ملاذاً آخر، غير صرخة محمود درويش "يا وحدنا"، فلم يغادروا بيوتهم، ومقبرة أسلافهم، رهائن العوز والعزلة والذّل، إلى أن أدركهم الهلاك، وكان على سفن الهجرات

غير الشرعية، أن تحصد، أولئك الناجين من أتون الحرب. انتهى زمن التجوال في شوارع المخيّم، وتأمل ملصقات العرض القادم في "سينما النجوم"، وشعارات العودة، وصور الشهداء. لا أثر على الجدران، لصور غسان كنفاني، وناجي العلي، وجورج حبش، وياسر عرفات في غيابهم الأخير. لن أزور صالح علماني مرّة أخرى، في شارع الثلاثين، ولا أعلم مصير الآلة الكاتبة القديمة التي احتفظ بها كذكرى لمسودات ترجماته الأولى لروايات غابرييل غارسيا ماركيز في هذا الشارع، استيقظت روح غابرييل للمرّة الأولى لينطق بالعربية، في روايته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه": "أمسك الكولونيل بسكين وراح يقطّع بعضاً من ثمّار الفاكهة ليقدمها للديك، في حين لفحته موجة خفيفة من برد ديسمبر، فأدرك أن الشتاء قد حلّ"

هجر صالح علماني بيته في شارع الثلاثين إلى إحدى ضواحي دمشق الهادئة، لكنه عاد إليه على عجل، بعد أشهر من الاضطراب، فقد طاردته لعنة "سانتا إيفيتا" للأرجنتيني توماس إيلوي مارتينيز في الرواية، تحلّ لعنة سانتا إيفيتا على الجنرال الذي كان يحقق في حادثة موتها فيصاب بالجنون، فيما يموت الكاتب إثر انتهائه من كتابة الرواية. خشي المترجم أن يصاب باللعنة ذاتها، فغادر منزل العائلة في الضواحي إلى بيته القديم في مخيّم اليرموك، في أطراف دمشق، كي يواجه مصيره وحيداً. كان شبح الجدّة المحنّطة يحوم في المكان. تذكّر أولاً أنّه من مواليد زمن النكبة، في إشارة إلى ساعة شؤم تطارده على الدوام. فما إن وصلت الشاحنة العسكرية التي تقل العائلة المنكوبة إلى إحدى قرى حمص المحاذية لبادية

الشام، حتى ولدته أمه في صبيحة اليوم التالي في فناء مدرسة طينية، تحوّلت لاحقاً إلى زريبة أغنام. القذيفة التي هزّت أركان بيته في الضواحي، أرغمته على مغادرته إلى مخيم اللاجئين في حمص، وحين ضاق عليه الحصار هناك، عاد إلى دمشق ليغادرها مضطرّاً إلى مدريد، قريباً من أرواح كُتّابه المفضّلين.

صور جثث القتلى المغطاة بقوالب الثلج كي لا تفسد في عرض البحر في السفينة المبحرة إلى المجهول، تُكمل مشهد العار. هاربون من جحيم الحرب في البلاد يلقون حتفهم برصاص خفر السواحل، أو على يد أصحاب المراكب كي يتخلّصوا من حمولة غير شرعية. توابيت مفتوحة، وبشر للرمي، قبل مسافة النجاة بكيلومترات، أو مواجهة مصيرهم المحتَّم في الموت غرقاً. يروي أحد الناجين من حادث غرق قارب كان يقل مهاجرين غير شرعيين في مياه البحر المتوسط، يوم الجمعة، في الحادي عشر من تشرين الأول، أن القارب كان متهالكاً، كما تعرّض لإطلاق نار، مما أسهم في وقوع الكارثة التي راح ضحيتها ثلاثة وثلاثون شخصاً. بدأ (ع) رحلة الفرار من مخيم للاجئين الفلسطينيين في دمشق، إلى مصر، ثمّ إلى ليبيا، بعد أن دفع أموالاً لأحد المهرّبين كي يصطحبه مع شقيقه وعمه إلى إيطاليا، على أمل أن ينتهي المطاف بهم، في السويد. ليلة الخميس أبحر قارب خشبي صغير بنحو مئتي مهاجر فلسطيني وسوري، وما أن ابتعدوا في المياه قليلاً، حتى أطلق مسلحون النار على القارب، مما أحدث ثقوباً فيه، لكنه أكمل الرحلة باتجاه المياه الدولية الإيطالية، على وقع إطلاق نار بالذخيرة الحيّة، فأُصيب اثنان من طاقم القارب، وبعض

النساء، إلى أن استقرّت طلقة في غرفة المحرّك، فتسرّبت المياه إلى داخل القارب الذي كان يقترب من مدينة لامبيدوزا في جزيرة صقلية، وحينئذ، بدأت الأمواج تجرف القارب باتجاه جزيرة مالطا، وقد ازدادت كمية المياه المتسرّبة إلى الداخل، وسط صراخ النساء والأطفال من الذعر، فاضطرّ قائد القارب للاتصال بالصليب الأحمر في مالطا، طلباً للنجدة. أخبروه بأنهم يحتاجون إلى نحو أربعين دقيقة، إلى أن حلّقت طائرة فوق القارب، وقامت بتصوير المشهد، ثمّ ابتعدت.

ارتدى الركاب سترات النجاة انتظاراً لإنقاذهم. وبمجرد سقوطهم في المياه فرّقتهم الأمواج باتجاهات مختلفة، مدة ساعة ونصف الساعة، إلى أن وصلت فرق الإنقاذ من جزيرتي مالطا ولامبيدوزا، التي تمكّنت من إنقاذ ما تبقّى من المهاجرين على قيد الحياة.

أما (ع) فهو موجود الآن، في مركز احتجاز، في مدينة لا مبيدوزا، بانتظار ترحيله إلى دمشق أو بيروت ليواجه مصيراً تعساً آخر.

هكذا اختلطت أرواح الغرقى الجدّد بأرواح أسلافهم، أولئك الذين غزوا جزيرة صقلية، قبل ألف وثمانمائة وخمس وثمانين سنة، منذ أن دخلها أسد بن فرات في عهد زيادة الله الأغلبي بحملة تضم سبعين سفينة، وعشرة آلاف مقاتل، وسبعمائة فرس، ليدوم حكمهم نحو قرنين ونصف القرن، إلى أن انتزعها منهم النورمانديون في العام 1091، على يد روجر الأول، لكن البصمة الإسلامية ظلّت واضحة في معالم الجزيرة لجهة العمارة والدواوين واللغة، والتسامح الديني، ويذكر الشريف الإدريسي

في "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أن روجر الأول، وقف ضد البابوية ومحاكم التفتيش، واعتمد على المسلمين في تسيير شؤون الجزيرة، وفي عهده، صنع الإدريسي قرصاً دائرياً من الفضة الخالصة، ونقش عليه خريطة العالم المعروف آنذاك بأقاليمه وخلجانه وبحاره وأنهاره، كما رسم مجموعة من الخرائط للعالم على الورق تفوق في دقتها ووضوحها خريطة بطليموس الشهيرة، وهو ما جعل من الإدريسي أعظم الجغرافيين في العصور الوسطى، أما ابن الأثير فيقول أن عرب صقلية أظهروا الحزن على وفاة أكبر أبناء روجر الثاني ورثاه شعراؤهم، فيما النساء لبسنَ السواد، وتركنَ شعورهن حزنًا عليه والتففنَ حول القصر الملكي ناحباتٍ وسارت خادماتهن في الشوارع ترتلنَ مقطوعات الرثاء.

وكان الحرس الخاص بالملك النورماني يضم عددًا كبيرًا من العرب المسلمين إلى جانب حرسه من الفرسان النورمان. كما أن القوانين والقرارات التي كان يصدرها البلاط النورماني كانت باللغات الثلاث: العربية واللاتينية والإغريقية، وكانت تحمل علامة الملك النورماني بالعربية، فمثلاً كانت علامة روجر الثاني وابنه وليام الأول "الحمد لله شكرًا لنعمه" وعلامة وليام الثاني "الحمد لله حق حمده"، وكذلك اتخذ ثلاثة من ملوك النورمان ألقاباً عربية، فكان لقب روجر الثاني "المعتز بالله"، ولقب وليام الأول "الهادي بأمر الله"، ولقب وليام الثاني "المستعز بالله"

الغرقى على شواطئ صقلية يستنجدون بأجدادهم، لكن "مقبرة المهاجرين لا تنصت إلى عويلهم، العويل تبتلعه الأمواج والحيتان والصخور، فالمهاجرون

غير الشرعيين، لا قيود لهم إلا في محاضر التحقيق، وسجلّات خفر السواحل، ووكالات الأنباء.

متحف افتراضي

2013/11/4

بلاد ممزّقة تستدعي إنشاء متحف افتراضي بقصد تجميعها في خريطة واحدة. لا طريق سالكة إلى المدن والقرى الحدودية. المدن والقرى التي كانت حصتها الوحيدة في نشرات الأخبار عبارة واحدة هي "عاصفة رملية تهبّ على المنطقة الشرقية من البلاد" استعادت حضورها في الأخبار العاجلة بوصفها مناطق ملتهبة. لعنة النفط جلبت جحافل الغزاة بلحاهم الطويلة وكتاب فتاويهم، وأسلحتهم المتطوّرة، فكان على السرياني الذي استقر أسلافه في هذه المنطقة منذ مئات الأعوام، أن يحفظ عدد ركعات صلاة الفجر، وهل هي اثنان أم أربع؟ كي لا يرسب في امتحان حواجز المسلحين، وكان على الكردي أن يتدرّب على ترديد اسم "سري كانيه" بصوت مسموع، بدلاً من اسم "رأس العين" مزهواً بلغة كانت ممنوعة من التداول، طوال خمسين عاماً، أما البداة (أجدادي القساة) فقد نفضوا عن جلودهم غبار الطاعة، وعباءات الخنوع، واستعدوا للغزو مجدّداً، كما كان يفعل أسلافهم، في تمزيق أحشاء رجال القبائل المعادية، وسلبهم خيولهم وثيرانهم وقطعان أغنامهم. بلاد نهب أبناؤها مخازن متاحفها، حطّموا التماثيل والأيقونات والأضرحة، وذهبوا عراةً إلى كتاب التاريخ. حطّموا

أبجدية أوغاريت بسيوف الجهل، ولجأوا إلى الكهوف والمغاور والجبال، وكأن سفن الفينيقيين لم تبحر يوماً إلى صيدا وصور وقرطاجنة وملقة وقادش ومالطة. السفن المحمَّلة بأصباغ الأرجوان، والفخار، وخشب الأرز، والتوابل، والعطور، وأدوات الزينة. في متحف حلب، سأنصتُ إلى ترجمة الأشعار الأوغاريتية المحفورة على تسع لوحات فخارية، الأشعار التي كتبها شعراء مجهولون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد "لديَّ رسالة أقولها لك: اسكب سلاماً في جوف الأرض، أكثر من المحبة في قلب الحقول، كي نقيم في الأرض وئاماً، ونغرس في التراب محبة، سلاماً لبني البشر"، وفي لوحة أخرى بإمكانك أن تقرأ عبارة نفيسة أخرى "حطّم سيفك، وتناول معولك واتبعني

الآن، لا مفرّ من معجم الموت، فهو "تحفة العروس"، و"مختار الصحاح"، و"محيط المحيط" اختر موتك، وامض إلى المقبرة، أو فاستلم جثتك الممزَّقة عند عتبة باب بيتك، أو ما تبقى منها في كفنٍ مرتجل. ثلّاجات الموتى لا تتسع للمجزرة، والمقابر الجماعية شقّت حقول الذّرة الصفراء والنعنع والبقدونس إلى خطوطٍ متوازية، تحت أشجار الحور. لا مكان للنزهات الخلوية في بساتين الغوطة، وحده الموت يتجوّل في الشوارع، مدججاً بحزامه الناسف، ومفخخاته المتطوّرة، وحورياته في الجنّة، الحوريات إذ "تهب ريح الشمال على أهل الجنّة في سوق الجمعة، فيرجع الرجل لأهله في خيمة من لؤلؤة مجوّفة، فتستقبله الحور فتحمله على فخذها وتسقيه العسل بكأس الفضة من يدها، ثمّ تمسح فمه بفمها، ثمّ تقول يا وليّ الله وعزّة ربي، ما رأيت في الجنّة أجمل منك قط، فيقول وأنت والله ما رأيت

في الجنة أجمل منك قط"، و"لو أن طاقة من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها"، و"كالغصن الرطيب، الذي جمع من كلّ فاكهة صنفاً، فوردُ على الخدود، وتفاحُ على الجبين، ورمّانُ في الصدور

سبّحْ بسورة ميم إذاً، وارفل بنعيمها، في الليل، وأطراف النهار: موت، ومقبرة، ومئذنة، ومدفع، ومنجنيق، ومشنقة، ومقصلة، ومجزرة، ومأتم، ومتاهة، ومشرحة، ومكة، فهذا هو الطواف العظيم.

أستندُ إلى أحد جدران المتحف، تنزلق قدمي اليسرى إلى حفرة، فتصطدم بلغم، وربما بجمجمة محارب محشوة بالفتاوى وصور الحوريات ورائحة دم قديم. أسيرُ كالنائم في رواقٍ طويل ينتهي إلى حائط مهدّم، هل كان صالة مسرح، أم مستودعاً للأسلحة، أم واجهة مقهى؟ أنصتُ إلى أصوات ممثلين فوق خشبة متهالكة، وإلى صوت رصاص، وإلى شجار لاعبي نرد، تتداخل الأصوات ثم تتلاشى، ووسط الصمت المطبق، ترتفع حدّة الموسيقى، موسيقى سيمفونية الموت والعذراء لفرانز شوبرت، تظهر "باولينا سالاس على خشبة المسرح، لتروي حادثة اغتصابها في السجن على يد جلّادها، الجلّاد الذي عرفته لاحقاً، من صوته ورائحة عطره، فيما تُضاء في الخلفية صورة كبيرة لأرييل دورفمان، وقد بدا عليه الاضطراب، وكأنه قد أنهى كتابة نصه للتو. سوف ينطق بعبارة واحدة "لابد لأحد ما أن يبقى حيّاً ليروي ما حدث" صوت الرصاص يعطّل المشهد. ألسنة النيران تلتهم الخشبة والستارة، وملصقات العروض القديمة، إلى أن أدركتْ صورة أبي

خليل القباني في نهاية الممرّ، وأحالتها إلى رماد. آثار الرصاص تملأ الجدران الأخرى للمتحف، إحداها تستقر في حلمة ثدي ملكة آرامية. طلقة مدفعية تُطيح الذراع اليمنى لمحارب آشوري، وتحطّمُ تعويذةً مسمارية لطرد الأرواح الشريرة مكتوبة قبل خمسة آلاف عام، في مملكة ماري. ولكن مهلاً، أين اختفى التمثال العاري لامرأة تدمرية، التمثال الذي كان يزيّن مدخل المتحف الوطني في دمشق، من جهة اليسار؟ سأكتشف أن هناك من أخفى التمثال في المستودع، إذ لا يليق، حسب ما يقول أمين المتحف، أن تستلقي امرأة عارية من البازلت أمام أنظار رواد المتحف. متاهة، بلا مخرج نجاة، وسط تماثيل مقطوعة الرؤوس، وسراديب غارقة في العتمة، كانت دهاليزها، إلى وقت قريب، مكاناً للقبلات المسروقة، بتواطؤ مكشوف مع الحارس، بين عشّاق لم يجدوا مكاناً آمناً، أفضل من مخزنٍ لأوابد الأسلاف.

في تضاريس أخرى، تحوّلت القلاع والمتاحف والمدرّجات الرومانية القديمة إلى ساحات حرب مفتوحة، وقودها أشلاء من الحجارة المصقولة لتماثيل آلهة وملوك ومنمنمات، وأشلاء جنود لم تحمهم الآلهة من موتٍ محتّم. في استراحة المحارب، لم يجد الجندي الضجر الذي نجا من الموت، ما يفعله، سوى أن يضاجع حطام تمثال الملكة، فوق ضريح قدّيس مجهول، وأن يصنع من الطلقة الفارغة ناياً للنواح على بيتٍ، لم يعد موجوداً على الخريطة، ورغم أن عدّاد الموتى لم يتوقّف عن الدوران، طوال تسعمائة وخمسة وستين يوماً، إلا أنك لن تجدَ أحداً ينشد الغفران أو الندم. الثأر هو الحساء الوحيد على مائدة الدم، مائدة العشاء الأخير، لا يوسف بيننا كي ننصت إلى شكواه من الأخوة الأعداء، فهناك من ردم البئر، ودفَننا

جميعاً بقمصاننا المدمّاة، تحت تراب المذلّة والخوف واليأس والعار. نصوص الكراهية تتدفق من شاشة شبكة الانترنت، في معارك لا تقلّ ضراوة عمّا يحدث على الأرض. صنبور مفتوح من ماء الأكاذيب والبطولات الزائفة والهجاء. حبر الموقع الأزرق يسيل من مستطيل صغير إلى الغرفة، يغرق رفوف الكتب، والكراسي، وخزانة الثياب، وأصص الحبق، والسلالم، حبر يسيل بفطائر الحكمة المسمومة، وسيوف الأجداد، تحت خيمة من وبر الماعز، مطليّة بالأزرق الداكن، وخدمة "سكايب" للجنس عن بعد، بوصفها نوعاً من استراحة المحارب، بعد أن أنهكته الغزوات الافتراضية، إثر فراره بجلده إلى خارج الحدود، مفسحاً طريق الجنّة إلى مجاهدي "شام شريف" كي يحرّروا الأرض المقدّسة من دنس الكفّار. بئر أم نفق بلا نهاية؟ لا حبال نجاة للخروج من هذا الكابوس.

في مكان ما، من هذا النفق، أنصتُ إلى ضجيج موتى يتدربون على أدوارهم في فيلم "تحت الأرض"، وكان أمير كوستاريكا منهمكاً في توضيب مشهد لرجل يجلس على كرسي متحرّك، يوزع أوامره على ضحاياه، وسط فوضى السلاح، وكأن الحرب العالمية الثانية، لم تتوقّف لحظةً واحدة. أتمتمُ مع المحتجزين جملةً وردت في مقدمة الشريط "ذات مرّة كان هناك بلاد"، بتأثير تعميم وزّعته إحدى الجماعات التكفيرية، كانت أصدرته الهيئة الشرعية في مدينة الرقة، يقضي بمنع ارتداء النساء سراويل الجينز، واستبدالها بالعباءة والبرقع، وإغلاق محلّات الخياطة النسائية في حال تواجد ذكر في المحل، ومنع وضع الملابس النسائية في واجهات المحال، ومنع التدخين، وإغلاق صالونات الحلاقة الرجاليّة، ومنع تقصير الشعر وحلاقة الذقن، ومنع زيارة

النساء عيادات الأطباء. هاهي نسخة أخرى من "قندهار أكثر رسوخاً، تجثم بثقلها على ضفاف الفرات، وعلى بعد فرسخ من موقعة "صفين" التي غمرتها مياه الفرات، كان أمراء الجهاد يقتسمون أموال بيت المسلمين في قلعة جعبر، القلعة التي كنّا نذهب إليها في رحلات نهرية، لالتقاط الصور التذكارية عند أسوارها القديمة.

أندلس بالأبيض والأزرق

26/ 11/ 2013

لا طريق آمنة إلى مطار دمشق الدولي بوجود القنّاصة. كان عليّ أن أتجه إلى بيروت في السيارة، ومن بيروت إلى تونس، في رحلة عمل طارئة. ثلاث ساعات ونصف من الطيران فوق البحر، عدا جزر متناثرة هنا وهناك، قبل أن تحطّ الطائرة في مطار قرطاج الدولي. في مدينة سيدي بوسعيد، أتجوّل في بقايا أندلس بالأبيض والأزرق. أصعد أدراجاً حجرية، كما لو إنني في باب توما، ثم انحدر نحو مقهى بحري، أجلس قبالة جزيرة لامبيدوزا، استحضر أرواح غرقى سوريين، وضجيج سفن فينيقية قديمة، وأهازيج صيادين، عند تخوم قرطاج. الحياة هنا لا يلوثها الرصاص، كما في دمشق، أحاول أن أتخفف من ثقل كوابيسي، لكنها تداهمني كل ليلة، حتى أنني استيقظت ليلة أمس على صراخي الذي كان يشبه العواء. كانت امرأة بعباءة سوداء تطاردني في العتمة. لم تحمني التعويذة التي ابتعتها من أحد دكاكين سيدي بوسعيد من الكوابيس. كنت مثل عليل في مصحّة، أتأمل أشكال الغيوم، وأنصت إلى صوت المطر في "قمرت"، لكن طبقات

الألم، لم تغادرني، رغم كل أسباب البهجة.

في شارع الحبيب بورقيبة، انخرطُ في الزحام وصخب المقاهي والحانات في تمارين شاقة على استعادة ما افتقدته في دمشق، لكن روحي كانت تهيم هناك. أيام قليلة لا تكفي لتقشير الجلد من آلامه، ولن تعيدني رحلة نحو الجنوب التونسي إلى صحرائي الأولى، رغم تشابه المسافات.

شرفة الغرفة (2133) تطل على غابة كثيفة من أشجار الصنوبر، تحجب صخب أمواج البحر. يوم تونسي آخر في عزلة شبه تامّة. أفكر بأرقام الغرف التي كانت من نصيبي في فنادق لا تحصى، الغرف التي كانت يوماً ما بمفاتيح معدنية للأبواب، ثم ببطاقة الكترونية (هل نسمّي هذه البطاقات مفاتيح؟). ذات فندق اقترح أحد الأصدقاء الجوّالين، اسم المهماز بدلا من المفتاح، أقول له: فكرة صائبة لفرسان مثلنا، بالكاد يستطيع أحدهم امتطاء حصان مسالم. أستسلمُ أمام شاشة "ناشيونال جيوغرافيك"، أتفرّج على برامج عن حياة الحيوانات المفترسة، وأسراب الجراد، وذئاب الثلج (كم تشبهنا؟)، لكن نشرة أخبار الظهيرة تخطفني إلى دمشق مرّة أخرى، ففي صبيحة هذا اليوم، وقع تفجير لسيارة مفخخة، تحت جسر لتجمّع حافلات الضواحي في السومرية، وسقطت قذائف هاون في شارع بغداد. كنت عالقاً بين قرطاج ودمشق، بين صمت شرفة "رامادا بلازا" وأصوات القذائف في دمشق. لا أعلم كم احتاج من الوقت كي أنظّف دماغي من وطأة قوائم الموتى هناك، أم إنها لعنة أبدية؟

في اليوم التالي، ستقعُ قذيفة في شارع العابد، وسط دمشق، من دون أن تنفجر. جحيم الموت العبثي يقترب أكثر فأكثر، من المربع الذي أتحصّن

به. قذيفة على بعد أمتار من شارع بيتي، في جادة الجزائر، وعلى بعد خطوات من مقهى الروضة، المقهى الذي بات ملجأي الأخير، وعنواني المؤقت، وفسحتي اليومية لمقابلة ما تبقى من أصدقاء تائهين في البلاد. في شارع الحبيب بورقيبة في تونس، أفتّش عن مقهى مشابه لمقهاي في دمشق: مقهى أفريقيا، مقهى باريس، مقهى البالاص، مقهى الأوسكار، مقهى باب البحر، لكنني لا أستطيع الجلوس أكثر من ربع ساعة، في إيٍ من هذه المقاهي، من دون أن أكمل قهوتي مرّةً واحدة. أعبر زحام ساحة باب البحر نحو الأسواق العتيقة، من دون أن أغادر رصيف شارع العابد، أقولُ لنفسي "ماذا لو انفجرت القذيفة حقاً، هل ستتحوّل أجساد العابرين في تلك اللحظة، إلى شاورما بشرية؟ ذلك أن القذيفة وقعتْ أمام المطعم الصّحي" تماماً، ولكن ماذا لو انحرفت القذيفة قليلاً، باتجاه مقهى الروضة، هل سيختلط لون الشاي بلون الدم؟ أحاول إزاحة صور الجحيم الدمشقي عن شاشة تفكيري بأن أغرق برائحة التوابل والعطور والصابون، وتأمّل المشغولات اليدوية للخزف التونسي، غير عابئٍ بالمطر الذي كان يهطل بغزارة، فيما كانت خيول عقبة بن نافع تندفع من القوس الحجري لباب البحر، بعنف نداءات الفاتحين.

وفي اليوم الألف، لم تتوقّف الحرب

2013/12/9

وفي اليوم الألف، لم تتوقّف الحرب.

لقد حرثنا تضاريس البلاد جيداً، من شمالها إلى جنوبها، نهبنا الكنوز

القديمة المدفونة تحت التراب، ودفنّا الموتى والأحياء في مقابر وخيام مرتجلة، اختلطت أقمشة الشعارات والأعلام والرايات بأقمشة الأكفان، في أطول لحن جنائزي، واستعملنا بجدارة تفوق الوصف، كافة أصناف الأسلحة، بما فيها السكاكين والسيوف الصدئة لجزّ الأعناق، مرفقة بصيحات "الله أكبر

عظام الموتى تكفي لإعادة تركيب هيكل عظمي لديناصور ضخم.

ديناصور يتجوّل في الأرض الخراب، باحثاً عن أسلافه. ديناصور يشاركني قهوتي وسريري وكتبي. ديناصور يدخن تبغ الغنيمة باطمئنان، ديناصور خرج من "الحديقة الجوراسية" في وضح النهار، وأخذ يحطّم كلّ ما في طريقه نحو الهاوية. الديناصورات تخرج من الكتب، حتى أن القصّة التي كتبها أوغوستو مونيتروسو، واعتبرها غابرييل غارسيا ماركيز، أعظم قصة قصيرة صادفها في حياته، كانت تلحّ عليّ طوال هذا اليوم، ذلك أن بطلها ديناصور أيضاً "عندما استيقظتُ من نومي، كان الديناصور لا يزال هنا"

انتهت القصة عند هذا الحدّ، بأقلّ من عشر كلمات، لكن الديناصور لا يزال هنا حقاً، وبدقة أكبر، لا أحد موجود سواه. أفكّر بمخاطبته، غير إنني لا أجد لغة مشتركة بيننا. أذهب إلى مشاغلي الأخرى، من دون أن يغادر الديناصور الغرفة، فقد كان يسدُّ عليّ النافذة الوحيدة للضوء، النافذة التي كنتُ أرقب خلالها القنّاص المتوهّم، وهدير الحوّامات، وأسراب الغربان، وحركة العاملة البدينة في مشغل الخياطة، في البناء المقابل. أتتبع حركة الإبرة فوق القماش الأبيض، هل ما كانت تطرّزه كفناً، أم ملاءة لسريرٍ

فارغ، أم هي بينلوب أخرى، تنسج خيوط الزمن الضائع، بانتظار محارب لن يعود؟ لا يجيبني الديناصور. أظنّ بأنه في إغفاءة صغيرة، بعد أن التهم، في وجبة واحدة، أشجار قرية كاملة، وشارعين، ومئذنة، وتسع دراجات هوائية، ومكتبة، وثلاثاً وعشرين حقيبة مدرسية، وحقل سبانخ، وواجهة متحف، وفناء كنيسة، وسبطانة مدفع مهجور، ومخزناً للطحين.

في هذه الأثناء، كان أحمد البديري الحلّاق، ينهي يومياته بقائمة لموتى الطاعون بقوله "وقد طال الأمر، وكثر القهر، وزال السرور، وزادت البغضاء والشرور، ولم يدرِ الإنسان أين يدور، من شدّة البكاء والنفور، ولله عاقبة الأمور

في اليوم الألف، واليوم الذي تلاه، لم تتوقف الحرب، وكان على شهرزاد "ي" المنهكة، أن تستدعي ليالٍ أخرى، كي تنجو من الهلاك.

لا تكفي حكاية إضافية واحدة، حتى تغلق باب الغواية في وصف طبقات الجحيم، فإن تتجاوز اليوم الألف، هذا يعني دخولك في الليالي اللانهائية، وفقاً لرؤية خورخي لويس بورخيس، وما عليك إلا أن تتعلّم العدّ من جديد: يوم، يومان، شهر، مائة يوم، خمسمائة يوم.. ولا يزال الديناصور هنا.

دمشق

(2014-2012)

المؤلف في سـطور

خليل صويلح، روائي سوري، مواليد الحسكة 1959، درس التاريخ في جامعة دمشق، وقد صدرت له الروايات التالية: "ورّاق الحب" (2002)، و"بريد عاجل" (2004)، و"دع عنك لومي" (2006)، و"زهور وسارة ونايمان" (2008)، و"سيأتيك الغزال" (2011).

نالت روايته "ورّاق الحب" جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية في القاهرة (2009)، وتُرجمت إلى الإنجليزية.

البريد الإلكتروني:

khalilsw5@gmail.com

"أنظرُ من نافذة غرفتي التي تقع في الطبقة الأخيرة من بناية قديمة، إلى الأسطح المجاورة، وأتخيّلُ قنّاصاً لا مرئياً يكمنُ خلف الأطباق اللاقطة، أو خزّانات المياه، أو النافذة المقابلة لنافذتي مباشرةً. فأنا في مرماه تماماً. وهاأنذا أتخيّل طريقة موتي، وكيف سأقع عن الكرسي ببطء، ليرتطم جسمي برخام أرضيّة الغرفة، فيما ستتلوّث شاشة الكمبيوتر المفتوحة أمامي بدمي، من دون أن أكمل الجملة الأخيرة".

يسجّل الراوي يومياته من قلب الجحيم، كما عاشها طوال ألف يوم ويوم، ليغلق الدائرة على "سرديات الشهود". وإذا بنا نقع على شهرزاد أخرى تتجوّل في شوارع دمشق اليوم، وسط الحرائق، من دون أن تحتاج إلى اختراع حكايات خيالية.

يستدعي خليل صويلح بطريقته السردية اللافتة، والتي خبرناها في "ورّاق الحب"، و"دع عنك لومي"، و"سيأتيك الغزال"، مؤرخين وورّاقين ومدوّنين قدامى لفحص صورة دمشق المنكوبة، على غرار ما فعله سلفه شهاب الدين بن أحمد البديري الحلاّق في كتابه "حوادث دمشق اليومية"، كما يحاور ابن عساكر، وابن خلدون، والتوحيدي، فتختلط الخرائط، وتتعدّد الهويات، ويشتبك الرواة، فوق سجّادة بلاغية تحتشد بجماليات شعرية آسرة، رغم كابوسية المشهد.

9 789774 902789

دار العين للنشر
Elain